بسم الله الرحمن الرحيم

الحركة الكونية للإنسان في رؤية القرآن للعالم

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
1- المقدمة المنهجية	2
2- رؤية القرآن للعالم(خطة الخلق العامة)	12
3- الحركة الكونية في رؤية القرآن للعالم	30
1.3- الأسئلة الوجودية	31
1.1.3- السؤال الأول: التكافؤ بين العمل الإنساني والخلق الكوني	31
2.1.3- السؤال الثاني: البعد الزماني للإنسان في الأرض ودلالته الكونية	38
2.3- الفرضيات العلمية المجيبة عن الأسئلة الوجودية	48
1.2.3- الفرضية الأولى	48
2.2.3- الفرضية الثانية	60
4- الخاتمة	67

1- المقدمة المنهجية

هذا بحث في القرآن الكريم لإيجاد رابط موضوعي ومنهجي يربط بين العمل الإنساني والخَلْق الكوني، لأن الكون(السماوات والأرض وما بينهما) كلّه لم يُخلق إلا لابتلاء الناس أيهم أحسن عملا كما يخبرنا القرآن الكريم: (وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾)(هود). يقتضي هذا أن يكون الكون(السماوات والأرض) مسخرا للفعل والعمل الإنساني، وهو كذلك كما يخبرنا القرآن الكريم: (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾)(الجاثية). وفي إطار الكون المسخر للإنسان فإن الأرض تحديدا هي موضع استخلافه ومنصّة انطلاقه إلى الكون: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾)(البقرة). والاستخلاف يقتضي التمكين المتضمن للتسخير، وهو

كذلك كما يخبرنا القرآن الكريم: (وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ١٠)(الأعراف).

هذا الربط لابد منه لسببين، الأول نورده الآن، والثاني نختم به هذه المقدمة. أما السبب الأول فهو أن هناك تداخل سببي بين الفعل الإنساني من جهة وبين الظواهر الاجتماعية والطبيعية التي تكتنف حياة الإنسان من جهة أخرى. وهو تداخل ينجم سببيا عن تداخل آخر يسبقه بين الفعل الإنساني في الكون من جهة، والفعل الإلهي المهيمن والمصدق من جهة أخرى: (يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٥)(السجدة)؛ (سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢)(الأحزاب)؛ (وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠)(الشورى)؛ (وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥)(البقرة)؛ (فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ

وَكَانُواْ قَوۡمًا مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾(الأعراف)؛ (لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةُۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ﴿١٥﴾ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿١٩﴾)(سبأ).

وقد عبّرنا عن كل ذلك من قبل من خلال مفهوم سنن الاجتماع الإنساني كما وردت في القرآن الكريم، وقد عرّفنا السنة الاجتماعية بأنها:[1]

" كل فعل إرادي راتب يأتي به الفرد، أو الجماعة، فيهيمن عليه ويصدّقه فعل إلهي مناسب له لينتهي به، بأسباب طبيعية، أو

1- أنظر بشأن هذا الموضوع بحثي بعنوان: "العلم والمعرفة بين رؤيتين للعالم: الظاهرة السبئية حالة تفسيرية"؛إصدار معهد إسلام المعرفة(2016م)، جامعة الجزيرة؛ السودان؛ مرفوع بموقعي (biraima.net).

اجتماعية، أو بكليهما، إلى نتائج يقدّرها الله تعالى قد تكون مطابقة، أو مخالفة، لما قصده الفرد، أو الجماعة من فعلهم، وقد يخص تأثيرها الفرد الفاعل، أو يعم كل، أو بعض الجماعة، وقد يكون التأثير مباشرا ينحصر في الفاعلين، وقد يكون غير مباشر يتجاوزهم إلى محيطهم الاجتماعي والطبيعي".

هذا التعريف لمفهوم "سنة الله" كما وردت في القرآن الكريم يأتي في إطار جهود بحثية يقوم بها كاتب هذا البحث تحت مسمّى "رؤية القرآن للعالم"، وهو برنامج بحث علمي يهدف إلى بناء رؤية قرآنية للعالم تستوفي الإجابة عن الأسئلة الضرورية التي يتضمنها المفهوم، ومعايير الاختبار التي لابد أن تجتازها رؤية العالم المحددة حتى تثبت جدواها، وصلاحها للعمل بمقتضاها. وقد اختار الباحث، من بين عدد من التعريفات التي تقدمها الأدبيات العالمية لمفهوم رؤية العالم، التعريف الذي مفاده أن "*رؤية العالم عبارة عن مجموعة مترابطة من المفاهيم والنظريات التي يجب أن تمكننا من بناء صورة كلية للعالم، وبهذه الطريقة نستطيع أن نفسّر أكبر عدد ممكن من عناصر خبراتنا. وهكذا فإن رؤية العالم هي إطار مرجعي يمكن أن نضع فيه كل ما يواجهنا من خبرات متنوعة في الحياة*".

وقد انصب الجهد في تلك البحوث على تبيّن معالم رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني، وقد أمكن، بفضل الله تعالى، إنجاز إطار نظري، يستوفي إلى درجة كبيرة محددات تعريف رؤية العالم أعلاه، أطلقت عليه مصطلح "**خطة الخلق العامة**" مما سوف أبينه في القسم الثاني أدناه. وقد استخدمت مصطلح "**خطة الخلق العامة**" للدلالة على التدبير الإلهي الخاص بخلق الإنسان واستخلافه تمكينا في الأرض، ومقتضى هذا الاستخلاف من تسخير ما في السموات وما في الأرض جميعا له، وتحميله، تكليفا، أمانة أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها هو، وما يترتب على هذا الحمل من مسؤولية وجزاء. وقد أخبرنا القرآن الكريم أن "**خطة الخلق العامة**" هذه قبل أن تحكم حياة الإنسان في الأرض جرت وقائعها في الملأ الأعلى، وانتهت بإغواء إبليس لآدم عليه السلام مما أدى إلى خروجه

وزوجه من الجنة ومعهم إبليس، وهبوطهم جميعا إلى الأرض، بعضهم لبعض عدو.

السبب الثاني لأهمية الربط بين الفعل والعمل الإنساني من جهة والخلْق الكوني من جهة أخرى هو أن استخلاف الإنسان يتم في إطار متغيرين كونيين أساسيين هما متغير "المكان" ومتغير "الزمان"، مما يقتضي إعطاء أهمية بالغة لما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة بشأنهما. ذلك أن من يجهل المكان والزمان المحّدِدِيْن لتكليفه سوف يفشل حتما في القيام بحق ذلك التكليف. إن عقد الاستخلاف بين الله تعالى وبين بني آدم يمكن تصوره باعتباره عقد معاوضة حيث أحد العِوضين(عمل الإنسان في الأرض) معجّل، والعِوض الثاني(الجزاء من الله تعالى) مؤجّل. فالعِوض المعجّل هو عمل الإنسان في هذه الحياة الدنيا ابتلاءً في زينة الأرض(المال والبنون)، شكرا، أو كفرا: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾)(الكهف)؛ (ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾)(الكهف)؛ (إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾)(الإنسان). أما العِوض المؤجّل فهو جزاء الله تعالى في الدار الآخرة لكل إنسان على عمله الدنيوي، فالجنة لمن شكر، والنار لمن كفر، جزاءً وفاقا: (كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾)(آل عمران).

إن محل عقد الاستخلاف متعين تحديدا في الأرض، ولكن الأرض ليست هي فقط أرض السماء الدنيا التي يحيى فيها البشر الآن، بل ندعي، تأسيسا على القرآن الكريم، أنها سبع أرضين تتوزع في الكون، مما يجعل الكون كله مجالا لحركة الإنسان وهو يسعى فاعلا ومنفعلا بهذا التدبير الإلهي العظيم(**خطة الخلق العامة**). وتقوم الفرضيات الأساسية لهذا البحث على أن أرض التمكين للإنسان ليست أرض السماء الدنيا هذه وحدها، ولكن تمدها من بعدها ست أرضين تتوزع بين السموات السبع، وجميعها مستخلف فيها الإنسان، وأن الإنسان سوف تتوالى جهوده الاستخلافية حتى يبلغ بعلمه وعمله

جميع الأرضين السبع. وها هو الإنسان وقد تسارعت حركته الكونية بحثا عن امتداداته الأرضية، مستغلا في ذلك تسخير الله تعالى له ما في السموات وما في الأرض جميعا.

هناك أمَدَان زمانيان ومديان مكانيان حاسمان يحكمان ويحددان حركة الإنسان في هذه الحياة الدنيا وهو يتقلب في ابتلاءات الاستخلاف؛ أمد زماني ومدى مكاني خاص بكل إنسان في شخصه، وأمد زماني ومدى مكاني يحكم البشرية جمعاء. وفيما يلي استعراض موجز للمدى المكاني ثم من بعده للأمد الزماني لآحاد الناس، وللناس جميعا.

المدى المكاني للإنسان الفرد يمتد من مكان مولده إلى كل الأرض، يمشي في مناكبها ليحقق مغزى استخلافه، توحيديا كان أم دنيويا. لقد أخفى الله تعالى نوع ومقدار ومكان وزمان رزق كل إنسان في هذه الحياة الدنيا، فلا تدري نفس ماذا تكسب غدا، كما أخفى المكان الذي تعيّن على كل إنسان الموت فيه فلا تدري نفس بأي أرض تموت، كل ذلك حتى يضرب الناس، مؤمنين وكافرين، في الأرض مبتغين من فضل الله، دون خوف من موت قد يتربص بهم، ودون يأس من رزق قد ينتظرهم. هكذا ينتشر الإنسان في الأرض جميعا مستوطنا ومستعمرا، وقد تواردت آيات القرآن الكريم مؤكدة هذه الحقيقة: (هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾)(الملك)؛ (وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾)(هود)؛ (إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾)(النساء)؛ (يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾)(العنكبوت)؛ (وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ

بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٠﴾)(النساء)؛ (...وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴿٢٠﴾)(المزمل)؛ (إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿٣٤﴾)(لقمان).

أما المدى المكاني للبشرية جمعاء فيتمدد في الكون المسخر للإنسان بسماواته السبع وأرضيه السبع جميعا، كما صرح بذلك القرآن الكريم: (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾)(الجاثية)؛ (ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾)(الطلاق)؛ (سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾)(فصلت). وكلمة "جميعا" في الآية الأولى هي صيغة الجمع التي يعبر بها الخالق سبحانه وتعالى عن قصده الأرضين السبع بإضافته "جميعا" إلى كلمة "الأرض" في كل القرآن الكريم كما سوف نبين لاحقا في هذا البحث، إن شاء الله تعالى.

ولن يصل مغزى الاستخلاف البشري إلى تمامه حتى يستوفي الإنسان رحلته الكونية ليسكن ويعمر الأرضين السبع التي خلق الله له ما فيها جميعا، كما سنثبت ذلك أدناه بإذن الله تعالى، فمن الأرض خلق الإنسان، وفيها يحيى، وفيها يموت، ومنها يخرج تارة أخرى. وآيات القرآن الكريم صريحة في هذا المعنى: (هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾)(البقرة)؛ (وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ

رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾)(هود)؛ (قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾)(الأعراف).

أما الأمد الزماني الخاص باستخلاف كل فرد مكلف فهو مدة أجله الذي أجّله الله له في هذه الحياة الدنيا، فمن مات فقد قامت قيامته، وأما الأمد الزماني لاستخلاف البشرية فيمتد إلى قيام الساعة. قد أخفى الله تعالى اللحظة التي يموت فيها كل إنسان في إطار مداه الزماني الخاص به(...وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾)(الأعراف)، ولكنه جعل العلم بجملة الأمد الزماني الذي تتمدد فيه حياة المكلّف في هذه الأرض ممكنا على وجه التقريب. فكل إنسان يعلم علم اليقين أنه قد يموت ليومه أو غده، ولكنه يعلم أيضا، من خلال التجربة الحياتية الممتدة لمليارات البشر، أن الإنسان الفرد في هذا الزمان، إذا سلِم من الآفات، يمكن أن يحيى ويعيش حتى المائة عام، أو تزيد، ومن ثم فإن متوسط العمر الاستخلافي المنتِج للإنسان في الأرض يتراوح بين الخمسين والسبعين عاما. هذا المتوسط يشكل الأمد الزماني الاستراتيجي الحاسم للفرد، وعلى أساسه يخطط لحياته الاستخلافية في الأرض، وهو الذي يسمح بعمارة الأرض، إذ لو أن كل إنسان خطط حياته على أنه يموت غدا، أو بعد غد، وقد يموت فعلا، لمَا عمر أحد الدنيا، ولانتفت حكمة الله تعالى من إنشاء الناس من الأرض واستعمارهم فيها، ولمَا عاد للاستخلاف مغزى، ولا للحساب والجزاء الأخروي معنى. بل إن كل المجتمعات المعاصرة ترتب شؤون أفرادها في كل مجالات الحياة بناء على هذا المتوسط الزماني العمري. ولو افترضنا أن هذا الأمد العمري تغير فجأة فبلغ ما كان عليه في عهد نبي الله نوح، عليه السلام، وهو الألف سنة، تزيد أو تنقص قليلا بحسب الإفادة القرآنية، لارتبكت حياة الأفراد والمجتمعات في هذا الزمان أيما ارتباك.

إن الأمد والمحدّد الزماني لاستخلاف البشرية جمعاء في الأرض هو قيام الساعة، وينطبق عليه تحليلنا لدلالات الأمد الزماني الخاص بالفرد أعلاه، فقد أخفى الله تعالى لحظة قيام الساعة التي لا يجلّيها لوقتها إلا هو، ولا تأتينا إلا بغتة، وما أمرها إلا كلمح البصر، أو هو أقرب(إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا

لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾(طه). ولكن لما قال الله تعالى إنها اقتربت، وأكدت السنة النبوية ذلك، صار من الممكن المقاربة النسبية لمقدار اقترابها حسابا، إما من خلال التقديرات النسبية لما مضى ولما تبقى من عمر الكون التي تأتي من علم الفيزياء الفلكية، وقد أذن الله تعالى بالنظر العلمي في خلق السموات والأرض، وإما بالجمع بين الدلالات الحسابية للحديث النبوي الصحيح بهذا الخصوص، والتقديرات الزمانية لما مضى من عمر الكون بحسب علم الفيزياء الفلكية. وقد تبين أن الأمد الزماني لاقتراب الساعة يبدأ باللحظة، أو اليوم الواحد، ويمتد إلى مليارات السنين كما يتضح لنا من الجدول أدناه، وهو المحدد الزماني لما بقي من استخلاف البشرية في الأرض. إذن، كما في شأن الأمد الزماني الخاص بعمر الفرد في هذه الحياة الدنيا، فإن الساعة قد تأتي البشرية غدا، أو بعد غد، فذلك على الله تعالى يسير، ولكنها قد تأتي بعد مليارات السنين، تماما كما قد يموت الفرد غدا، أو بعد غد، ولكنه أيضا قد يموت بعد مائة عام.

إذن، كما في حال التوقعات الفردية، لو أن كل المجتمعات البشرية تبني تقديراتها، فيما يتعلق بنهاية الكون وقيام الساعة، على أن ذلك قد يتم غدا، أو بعد غد، لما أثاروا الأرض وعمروها، ولما أقاموا على ظهرها حضارة، ولما انطلق الإنسان يجوب الكون بسفنه ومسابيره الفضائية، ولانتفت حكمة الله تعالى الثاوية في **"خطة الخلق العامة"**، التي هي أساس الاستخلاف. لكن غالب المجتمعات البشرية تقيم رؤيتها للعالم إما على أن هذا الكون خالد لا يزول، وإما أنه سوف يزول ولكن بعد أمد بعيد، وكلتا الرؤيتين الزمانيتين تسمح بالعمارة والحضارة التي تتراكم وتتوارث جيلا بعد جيل. أما تلك المجتمعات التي تدير أمرها على أن الأمد الزماني لعمر الكون لا يعنيها، أو تلك التي ترى أن نهاية الكون باتت وشيكة، وأن الأمر أعجل من أن ننظر ماذا في السموات والأرض، أو أن نتفكر في خلقها، فهي مجتمعات سوف تظل على الدوام هامشية، وخارج التاريخ والفعل الحضاري، وسوف تبقى أبدا مجتمعات مفعول بها لا فاعلة. إن الوعي بالأمد الزماني والمدى المكاني النسبي الذي يتحرك فيه الإنسان، وتتمدد فيه حياته، سواء في ذلك الأفراد والمجتمعات، أمر مصيري فيما يتعلق بالتصور والتخطيط ثم التنفيذ لما يمكن فعله في هذه الحياة الدنيا، في إطار المحددات الزمانية والمكانية.

إن المنهج الذي سوف نتبعه في إثبات دعوانا المكانية والزمانية لاستخلاف الإنسان الأرضي، مما سبق ذكره في هذه المقدمة، هو ما شاء الله تعالى أن نحيط به من علمه تدبرا في القرآن الكريم بحثا عن رؤية قرآنية كلية للعالم الطبيعي تكمّل الرؤية القرآنية الكلية لعالم الاجتماع الإنساني، التي بسطنا أهم مكوناتها المعرفية في "خطة الخلق العامة"[2]، وتكون مدخلا معرفيا للأمة الإسلامية إلى الكون الطبيعي تستطيع من خلاله أن ترتاد الفضاء على بصيرة. والذي تيسّر من القرآن الكريم توسلنا إليه بأسئلة وجودية أجبنا عنها بفرضيات علمية تستند في علميتها إلى آيات بينات من القرآن الكريم، وإلى إمكان التحقق منها تجريبيا. إن منهجي الذي اتبعته في هذا البحث يرتكز على الإتيان بالمقدمات من القرآن الكريم ثم توظيف الاستنباط العقلي للوصول إلى النتائج. وأرى أن هذا هو المنهج الصحيح في التعامل مع القرآن الكريم كمصدر للعلم الكوني التجريبي، بشقيه الطبيعي والاجتماعي، سواء لأغراض الإيمان أو العمران، حيث نؤسس على رؤية القرآن للعالم نظرياتنا وفرضياتنا العلمية، سواء استلهمناها من القرآن الكريم مباشرة، أو من الكون بضوابط منهجية من القرآن الكريم، ثم نتحقق من صحتها وجوديا باستخدام المناهج التجريبية المناسبة. فإذا استيقنّا من صحة الفرضية كنا "كأم موسى ترضع طفلها وتأخذ أجرها" من حيث تثويرنا للطاقات العلمية التي يذخر بها القرآن الكريم، ومن حيث حصادنا عائدا معرفيا في الوجود. وإن لم نبلغ اليقين في الإثبات حافظنا على نظريتنا وثابرنا في تحسينها بنائيا وتمحيصها تجريبيا، أما إن استيقنا من دحضها لم يقدح ذلك في صحة الوحي، بل في صحة فهمنا له، أو صحة مناهجنا في بناء النظريات واستخلاص الفرضيات منه، أو في صحة مناهجنا التجريبية، أو في كل، أو بعض من ذلك. إن القرآن الكريم، بوصفه علم من الله تعالى خالق الكون، هو وحده العاصم للعلم البشري من الزلل المنهجي والانزلاق نحو النسبية المعرفية التي انتهت إليها التجربة العلمية الغربية بعد أن تم تحريف ما سبق من كتب سماوية. إن العقل واللغة البشرية اللذين

2- أنظر أبحاث المؤلف المتعلقة برؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني، في موقع: biraima.net.

يوظفهما الإنسان لدراسة الوجود والتعبير عن حقائقه لا تكفيان وحدهما لتمكين الإنسان من أساس يقيني من التصورات الوجودية يبني عليه معرفة موثوقة ليؤسس عليها حياة يطمئن بها.

إن ما أقدمه في هذا البحث يمكن أن يندرج في إطار الإصلاح العلمي الذي ندعو إليه، وهو إصلاح يبدأ من القرآن الكريم كمصدر للعلم وفلسفته ويتصوب نحو دراسة الكون، الطبيعي والاجتماعي، كدليل إيمان بالله الواحد، ثم باعتباره مجالا مسخرا ليبلو الله تعالى الناس فيه أيهم أحسن عملا. والعلاقة بين الوحي وبين الكون كمصدرين للعلم الإنساني علاقة تفاعلية يثري العلم المتحصل من كل منهما فهم الإنسان لكليهما. هذا الإصلاح العلمي يعبّر، كفلسفة للعلم، عن مرحلة الانتقال من رؤية العالم الدنيوية الغربية ونظامها المعرفي الوضعي المهيمنان على الأمة الإسلامية اليوم إلى رؤية العالم التوحيدية ونظامها المعرفي التوحيدي اللذان ينبغي أن يشادا على أنقاض ما هو قائم اليوم في بلاد المسلمين.

2- رؤية القرآن للعالم(خطة الخلق العامة)

المبدأ الكلي الذي ترتكز عليه رؤية القرآن للعالم(خطة الخلق العامة) هو مبدأ التوحيد: (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ(1) اللهُ الصَّمَدُ(2) لَم يَلِد وَلَم يُولَد(3) وَلَم يَكُن لَّه كُفُواً أَحَد(4))(الإخلاص). فالله تعالى ليس كمثله شيء، غني بذاته مفتقر إليه جميع خلقه، وهو خالق كل شيء، خالق السماوات والأرض وما بينهما بالحق وأجل مسمى؛ وهو الذي تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن؛ وإن من شيء إلا يسبح بحمده. وهو الذي أخبر أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي؛ وهو الذي قال يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده. وهو الذي أنشأ الإنسان من الأرض واستعمره فيها، وفيها يعيده ومنها يخرجه تارة أخرى؛ وهو الذي أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط؛ وهو الذي أخبر الناس في كتبه التي جاء بها رسله أن كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز. وقد بين الله تعالى حقيقة الحياة الدنيا، ومآلات أمور الناس فيها وفي الآخرة، فقال:

(أعلَمُواْ أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنيا لَعِبٌ وَلَهوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُر بَينكُم وَتَكَاثُر فِي الأَموالِ وَالأَولادِ كَمَثَلِ غَيثٍ أَعجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يُهِيجُ فَتَرَاهُ مُصفَراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضوَان وَمَا الحَيَاةُ الدُّنيا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ)(20))(الحديد).

هذه المآلات النهائية للاجتماع الإنساني يمكن تفصيلها في رؤية لعالم الاجتماع الإنساني(خطة الخلق العامة) نستخلصها من القرآن الكريم على النحو الآتي:

المبدأ الكلي الذي تنطلق منه الرؤية القرآنية للظاهرة الاجتماعية، المعّبرة عن حقيقة الحياة البشرية على الأرض، هو أن الله تعالى إنما خلق الإنسان لعبادته: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ)(الذاريات:56). وعبادة الله تعالى تعني العلم به(فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾)(19)، ثم القيام بأمره ونهيه في أرضه بمقتضى شرعه(فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾)(هود)؛ (وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾)(المائدة). وفي هذا الإطار فإننا نجمل الأصول النظرية المنبثقة من هذا المبدأ التوحيدي الكلي في الآتي:

أولاً؛ إن عبادة الله تعالى مسرحها الذي تدور فيه هو الأرض: (وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)(البقرة:36)؛ (قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ)(الأعراف:25)؛

ثانياً؛ إن هذه العبادة تتم في إطار تكريم الإنسان وتفضيله ومن ثم استخلافه في الأرض: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ

مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)(الإسراء:70)؛ (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْض خَليفَةً)(البقرة:30). الخليفة وسط بين طرفين، فلا هو مالك أصيل مطلق التصرف والحرية فيما استخلف فيه، ولا هو مقهور مجبور لا حول له ولا قوة، ولا إرادة. فعقد الخلافة يقتضي أن يقوم المستخْلَف"الإنسان" بسياسة ما استخلف فيه"الأرض" وفق ما يحب ويرضى المستْخِلف"الله تعالى". والناس في مهمة الاستخلاف سواء، فخالقهم واحد، وأصلهم واحد، وإنما يتفاضلون بمقدار قيام كل منهم بحق الاستخلاف فيما استخلف فيه: (يأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلنَاكُم شُعُوباً وَقَبَائِل لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكرَمَكُم عِندَ اللهِ أَتقَاكُم إِنَ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)(13)(الحجرات)؛ (يَأَيُهَا النُّاسُ اتَقُواْ رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم مِن نَّفسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنها زَوجَهَا وَبَثَّ مِنهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَقُواْ اللهَ الّذي تَسَآءَلَونَ بِه وَالأَرحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيكُم رَقِيباً)(1))النساء)؛

ثالثاً؛ إن عقد الاستخلاف الذي تتم في إطاره العبادة يقوم على عمارة الأرض: (هُوَ أَنْشَأَكمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعمَرَكُمْ فِيهَا)(هود:61)؛

رابعاً؛ إن هذه الخلافة تقوم على مبدأ الامتحان والابتلاء والمحاسبة على العمل: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)(الملك:2)؛ (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرشُهُ عَلَى المَاءِ لِيَبلُوَكُم أَيُكُم أَحسَنُ عَمَلاً (7))(هود). فالإنسان يمكنه أن يعمر الأرض وفق منهج الله فيعمل فيها صالحاً، أو وفق هوى نفسه فيفسد فيها؛

خامساً؛ إن مجال الابتلاء والفتنة يتمحور فيما أودع الله سبحانه وتعالى في الأرض من زينة: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)(الكهف:7)؛

سادساً؛ إن ما على الأرض من زينة إنما يقوم على أصلين جامعين هما: "**المال**"(موارد معدنية، وزراعية، وحيوانية، تتحول في مجموعها إلى نقود وسلع بسبب القيمة المضافة بفعل الإنسان)؛ و"**البنون**"(علاقة جنس بين رجل وامرأة تثمر أبناء، تؤدي إلى قيام أسرة ثم أسرة ممتدة...إلى شعوب وقبائل): (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاة الدُّنْيَا)(الكهف:46)؛

سابعاً؛ إن الابتلاء في "المال" و"البنين" إنما صار ممكناً بسبب تزيين ما أودع الله فيهما من شهوات للنفس البشرية: (زُيِّنَ لِلنَّاس حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّة وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاة الدُّنْيَا)(آل عمران: 14)؛

ثامناً؛ إن نتيجة هذا الامتحان في نعمتي **المال** و**البنين**، وما يترتب على تفاعلهما مع النفس البشرية من نعم تفصيلية أخرى ترجع إليهما، إما أن تكون شكراً أو كفراً على نعمة الله، والشكر هو المطلوب من عمل الإنسان. والشكر على النعمة هو جوهر عبادة الإنسان لله تعالى في الأرض، وهو ثمرة العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِماَّ شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)(الإنسان:3)؛ (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)(الزمر:7)؛

تاسعاً؛ إن الإنسان إنما أصبح قادراً على الاختيار بين الكفر والشكر بسبب ما هيأه الله تعالى به من قدرة على اكتساب العلم وتوظيفه في الكون، كفراً أو شكراً، وبسبب ما أودع الله تعالى في النفس البشرية من ملهمات الفجور والتقوى: (وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(النحل:78)؛ (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)(العلق:5)؛ (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (10))(الشمس:7-10). ثم منح الله تعالى الإنسان الحرية وإرادة الاختيار والمشيئة في الفعل بملهمات التقوى الموجبة(الإيمان، العلم، الصبر، السخاء، العدل، الإحسان، الأمانة، الصدق...إلخ) في زينة الحياة الدنيا فيكون شاكراً، أو بملهمات الفجور السالبة(الهلع، العجلة، الضعف، الشح، البخل، الكبر، الحسد...إلخ) فيكون كافراً: (فَمَنْ شَاءَ فَلْيؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)(الكهف:29)؛

عاشراً؛ الشكر لله تعالى على نعمائه يقتضي توفر ثلاثة عناصر في الإنسان، هي: علم وإيمان وعمل صالح. أما العلم فهو **علم** بالمنعم(الله تعالى)؛ **علم** بالمُنعَم عليه(الإنسان)؛ و**علم** بالنعمة(المال، البنون)، والحكمة من خلقها، وكيف هي نعمة في حق المنعم عليه. وأما الإيمان فهو **إيمان** بالله تعالى، أسماء وصفات، يترتب عليه حال نفسي من الاطمئنان إلى رحمة الله وفضله، وإحساس بالمنة وتمني الخير للآخرين. وأما **العمل**

الصالح فهو ذلك الذي يؤدي إلى استغلال النعم فيما يرضي المنعم، والطمع في المزيد من المنعم يحفزه قوله تعالى: (وَإِذ تَأَذَّنَ رَبُّكُم لَئِن شَكَرتُم لأَزِيدَنَكُم وَلَئِن كَفَرتُم إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7))(إبراهيم). ولن يبلغ العمل تمام الصلاح حتى يتحقق له شرطان: أن يكون خالصاً لله، وأن يكون وفق ما شرع الله.

المتتبع للمفاهيم المفتاحية الثلاثة (النفس، المال، البنون) في القرآن الكريم يجد أنها وردت أحياناً معبرة عن جملة المعنى الذي يحتويه الحقل الدلالي للمفهوم[3]، وأحياناً ترد مفصلة هذا المعنى إلى عناصره الأساسية، كما في الآتي:

ورد مفهوم "النفس" في القرآن الكريم بمعنى كل الإنسان، في بعده المادي الحيوي وبعده المعنوي الروحي: (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ)(لقمان:34). ولكن مفهوم النفس ورد أيضاً بمعنى ذلك العنصر غير المحسوس الثاوي في الجسد المحسوس كما في قوله تعالى: (اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مِنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)(الزمر:42).

ورد مفهوم "البنين" في القرآن الكريم ليعبر أحياناً عن مجمل علاقة الابتلاء الكامنة فيه: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)(الكهف:46)، وهي علاقة (رجل- امرأة– أبناء- أحفاد). ولكنه ورد أيضاً بمعنى الأبناء، ذكورا وإناثا، مقابل الزوجة: (وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ منْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ منْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً)(النحل:72). وأخيراً يرد مفهوم البنين بمعنى الذكور من الأبناء مقابل البنات: (فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ)(الصافات:149).

3- (وعرّف أولمان الحقل الدلالي بأنَّه "قطاع متكامل من المادة اللغوية يعبّر عن مجال معين من الخبرة". ومفاده أن الحقل الدلالي يشمل قطاعاً دلالياً مترابطاً، مكوّناً من مفردات اللغة التي تعبّر عن تصوّر أو رؤية أو موضوع أو فكرة معيّنة. ويعرفه جون ليونز قائلاً: "إنَّ الحقل الدلالي هو مجموعة جزئية لمفردات اللغة"، ومؤدّاه أنَّ الحقل يتضمّن مجموعة كثيرة أو قليلة من الكلمات، تتعلّق بموضوع خاص وتعبّر عنه. ويرى جورج مونان أنَّ الحقل الدلالي هو "مجموعة من الوحدات المعجمية التي تشتمل على مفاهيم تندرج تحت مفهوم عام يحدّد الحقل"، أي إنّه مجموع الكلمات التي تترابط فيما بينها من حيث التقارب الدلالي، ويجمعها مفهوم عام تظلّ متصلة ومقترنة به، ولا تفهم إلاّ في ضوئه. والحقل الدلالي يتكوّن من مجموعة من المعاني أو الكلمات المتقاربة التي تتميّز بوجود عناصر أو ملامح دلالية مشتركة، وبذلك تكتسب الكلمة معناها في علاقاتها بالكلمات الأخرى، لأنَّ الكلمة لا معنى لها بمفردها، بل إنَّ معناها يتحدّد ببحثها مع أقرب الكلمات إليها في إطار مجموعة واحدة.)(أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية؛ الدكتور احمد عزوز؛ منشورات إتحاد الكتاب العرب؛ دمشق- 2002م).

يرد كذلك مفهوم المال بذات الطريقة ولكن بتفاصيل أكثر لكثرة عناصره المكونة له، وكثرة تمظهرات هذه العناصر، منفردة ومتفاعلة، فمثلا يرد المفهوم معبراً عن كل معاني حقله الدلالي كما في قوله تعالى: (المَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنيَا... (46))(الكهف)، ثم يرد المفهوم مفصلا إلى عناصره الأولية: (زُيِّنَ لِلَّناسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِسَاءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ الُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنعَامِ وَالحَرثِ ذَلِكَ مَتَعُ الحَيَاةِ الدُّنيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسنُ المَئَابِ (14))(آل عمران).

إذن المفاهيم القرآنية الثلاثة (النفس، المال، البنون) هي مفاهيم معرفية جامعة، والعناصر الكونية المعادلة لها هي أصل الظاهرة الاجتماعية من حيث العلة الظاهرة، إذ لا تحتاج لأكثر منها علة وجود، ولا تحتمل أدنى منها، كما يستبين أدناه. ولكن أين وجه الإحكام في هذا الابتلاء الإلهي للبشر على الأرض بحيث يضمن دخول جميع الناس فيه؟ إن وجه الإحكام يكمن في الثنائية التي خلق الله بها الإنسان: ثنائية الجسد والنفس، وثنائية النفس من حيث إلهامها فجورها وتقواها، فالثنائية الأولى أدت إلى ثنائية في الدوافع بعضها يختص به الجسد الطيني وهي الدوافع الحيوية، وبعضها تختص به النفس وهي الدوافع النفسية، أو الاجتماعية.

الدوافع الحيوية الأساسية هي الجوع الناجم عن عدم الأكل، والعطش الناجم عن عدم الشرب، والعري الناجم عن عدم اللبس، والإضحاء الناجم عن عدم السكن، والعنت الجنسي الناجم عن عدم الوقاع. هذه الدوافع الحيوية المرتبط إشباعها بعنصري "المال" و"البنين" هي دوافع ضرورية ولابد من الوفاء بمقتضياتها لحفظ أصل حياة الإنسان على الأرض، وهي التي تضمن دخول جميع الناس، في كل زمان ومكان، في فتنة المال والبنين. لذلك كانت "النفس" و"المال" و"البنون" من الأصول الكليّة المطلوب حفظها في مقاصد الشريعة الاسلامية.

الدوافع النفسية مثل الطمع، الهلع، الشح، البخل، الكبر، العجلة، الضعف، هي الدوافع الضرورية التي تضمن جريان الابتلاء في كل الناس، في كل زمان ومكان. وهي الآليات التي تضمن تدافع الناس لعمارة الأرض لتحصيل زينة الحياة الدنيا ونيل حظوظهم من شهواتها. فإذا تفاعلت العناصر الكونية الثلاثة (النفس، المال، البنون)، المقابلة للمفاهيم المعرفية القرآنية،

بمقتضى الضرورات الحيوية ابتداءً، نجم عن هذا التفاعل بروز عنصرين آخرين كانا موجودين من قبل بالقوة في هذه العناصر الثلاثة، وهما:

1- "العلم بظاهر من الحياة الدنيا"، وكان موجوداً من قبل بالقوة، من حيث قابلية الإنسان للتعلّم(السمع، البصر، الفؤاد)، ومن حيث إمكان العلم الثاوي في الخلق بمقتضى الحق في عالم الشهادة.

2- "الهوى" الذي تتحرك دواعيه الفطرية في "النفس" بعد أن تذوق لذة الشهوات التي أودعها الله تعالى في "المال" و"البنين". و"جميع *إطلاقات الهوى في الاصطلاح ترجع إلى ميل النفس إلى مشتهاها، إن كانت الذات، أو الخالق، أو المحبوبة.... الخ، فجميعها ميل إلى المحبوب...وأكثر الروايات عن السلف أن الله تعالى ما ذكر (هوى) في القرآن إلا ذمّه، كذلك هي جميع الآيات باستثناء آية واحدة، وهي قوله تعالى: (ومن أَضلُّ ممن اتَّبع هواه بِغَيرِ هدى من الله)(القصص: 50)؛ فقد قيده بأنه هوى بغير هدى، فأشار إلى أنه يمكن للهوى أن يوافق الهدى، والله تعالى أعلم".*[4]

ويقول الدكتور حسن الترابي: *" الهوى هو جماع الميول الفطرية التي تتجه بالإنسان إلى متاع الحياة الدنيا، فإذا طاوعه واتبع دواعيه أوقعه في أسر اللذات الأرضية المحسوسة حتى يصبح كل همه في أن يأكل ويتمتع كشأن البهائم، وحتى يذبل عنصره الروحي، وينبتّ الحبل بينه وبين عالم الغيب. ولا يزال الهوى بصاحبه حتى يبطل سر كرامته على سائر الأشياء، ويعطل تعلقاته العلوية من فرط شغله بالشهوة السفلية، بل حتى يغضي بصيرته جميعا فلا يرى إلا ما تحت قدميه، ولا يعنى إلا بالقريب العاجل، لا ينظر في حياته لمآلاتها البعيدة، ولا يقدم شيئا لآجلته. وما دام عبدٌ الهوى أعماه في دنياه يأخذ منها كيفما اتفق عاجلا بعاجل، ولا يخط لها تدبيرا، أو نهجا شاملا، فأولى أن يغفل جملة واحدة عن آخرته."أه.*[5]

لما كان "العلم بظاهر من الحياة الدنيا" يتولد عن التفاعل، بمقتضى الدوافع الحيوية والنفسية، بين العناصر الأولية الثلاثة الحاكمة للظاهرة الاجتماعية(النفس، المال، البنون) فإن دوره يظل وظيفيا بحتا حتى يأتي "علم

---

[4]- الهـوى : دراسة موضوعية للمصطلح القرآني؛ محسن سميح الخالدي (دراسات، علوم الشريعة والقانون، المجلّد ،37العدد 2010).

[5]- الإيمان وأثره في حياة الإنسان؛ حسن الترابي. الدار العربية للعلوم ناشرون(بيروت؛ ط 3؛ 1430ه-2009م).

الوحي" من السماء فيتوحدا، بمقتضى المنهجية التوحيدية، ليكوّنا معا "العلم التوحيدي"، الذي يكون له دوره العقدي كدليل إيمان بالله الواحد، بجانب دوره الوظيفي في صلاح حياة الناس ومعاشهم، أي ذلك العلم الذي يحقق الإيمان في القلب، والعمل الصالح في الأرض، أي في زينة الحياة الدنيا.

"النفس" إما أن تتفاعل مع "المال" و"البنين" بمقتضى "العلم التوحيدي" وملهمات التقوى فيتحقق "الشكر" لله تعالى على نعمه، وإما أن يتم التفاعل بمقتضى "الهوى" وملهمات الفجور فيتحقق بذلك الكفر بالنعمة. ومجمل هذا التفاعل هو المسؤول عن نشأة المجتمعات الإنسانية، وبروز جميع الظواهر الاجتماعية الناجمة عن التدافع البشري، في أي زمان ومكان.

لقد اقتضت حكمة الله تعالى خلق أول زوجين من ذكر وأنثى وهبوطهما إلى الأرض، وضرورة العنت الجنسي أدت إلى تغشّي الرجلُ المرأةَ، وما نجم عن هذه العلاقة من أبناء اقتضى تأسيس أسرة. ثم عزز قيام الأسرة ضرورات المأكل والمشرب والملبس والمسكن، وما تقتضيه من تقسيم العمل وتوزيع الأدوار بين أفراد الأسرة. ومن البديهي أن نتصور كيف أن الضرورات الحيوية هذه أدت محاولة إشباعها إلى أن تتسع دائرة الأسرة لتصبح أسرة ممتدة، ثم رهطاً وقبيلة، حتى إذا ضاقت رقعتهم الجغرافية على تدافعهم وأطماعهم انبثوا في فجاج الأرض رجالاً ونساءً، فكانت الشعوب والأمم والمجتمعات الحضرية والبدوية، وكان العمران.

إذن الوفاء بحق الضرورات الحيوية يضمن لنا قيام المجتمع، وتفاعل "النفس" بمقتضى "العلم التوحيدي" أو" الهوى" مع "المال" و"البنين" يضمن لنا قيام الابتلاء. فالنفس التي أُلهمت فجورها وتقواها وزُيّن لها حب الشهوات الدنيوية من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، سرعان ما تذوق لذة تلك الشهوات التي بدورها تثير في النفس آليات الابتلاء، ونعني بها دوافع الفجور والتقوى. ونرجّح أن أول ما يثور من تلك الدوافع هو "الطمع"، حيث يطمع كل شخص في الحصول على المزيد من زينة الحياة الدنيا، ومن ثم يصبح الإقبال عليها لإشباع الشهوة لا للضرورة والحاجة البدنية. ولما كانت أطماع الناس أكثر مما هو مطموع فيه، في أي وقت ومكان، سرعان ما تبدأ الدوافع السالبة الأخرى تثور في النفس بسبب التدافع بين الناس لحيازة زينة الحياة الدنيا، والاستئثار بأكبر نصيب منها.

هكذا يبدأ التنازع والتصارع بين الناس بسبب التهافت على زينة الحياة الدنيا، فاحتاجوا إلى نظام اجتماعي يقوم بمقتضاه حاكم يسوس أمرهم، وينظم علاقاتهم، ويفض نزاعاتهم، ويجلب لهم مصالحهم، ويدرأ عنهم المفاسد التي تأتي من عند أنفسهم ومن عند غيرهم. واحتاج الحاكم إلى حكومة وشريعة ونظم ومؤسسات سياسية تعينه على أداء مسئولياته. واحتاج المجتمع إلى أعراف وتقاليد وعادات ومؤسسات اجتماعية واقتصادية تحفظ له تماسكه وتضمن له استمراريته. وهكذا يمكننا أن نتابع تطور المجتمعات وتعددها وتنوع مظاهر الحياة فيها، وما يبدعه الإنسان من علم وتقنية يسخّر بها زينة الحياة الدنيا لإشباع شهواته من متاعها، وتعظيم حظوظه منها. إذن فإن أي ظاهرة من الظواهر الإنسانية جاءت مترتبة على نشوء المجتمعات وتطورها من خلال تدافع أفرادها فإن مردها الأخير تفسيرا، من حيث العلة الظاهرة، إلى العناصر الأولية للظاهرة الاجتماعية (النفس، المال، البنون)، وطبيعة التفاعل بينها كما أجملناه سابقاً.

إن حقيقة الامتحان والابتلاء الذي هو قدر الإنسان في هذه الأرض تتمثل في شكل أحكام شرعية جاءت بها الرسل من عند الله تعالى، طبيعتها "أفعل" و"لا تفعل"، وذات علاقة مباشرة وغير مباشرة باستخدام الناس لزينة الحياة الدنيا. ورغم أن حقيقة هذه التكاليف الشرعية تقوم على جلب المصالح ودرء المفاسد عن الناس في الدنيا والآخرة إلا أنها تتعارض في الغالب مع هوى النفس في تفاعلها مع زينة الحياة الدنيا. إن التزام الإنسان بتلك الأوامر والنواهي الربانية هو أساس العمل الصالح المثمر للشكر على النعمة الذي جعله الله تعالى ثمناً للانتفاع بها: (وَإِذ تَأَذَّنَ رَبُّكُم لَئِن شَكَرتُم لأَزِيدَنَّكُم وَلَئِن كَفَرتُم إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (7))(إبراهيم)؛ (مَّا يَفعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُم إِن شَكَرتُم وآمَنتُم وَكَانَ اللهُ شَاكِراً عَلِيماً (147))(النساء). ولكن ملهمات الفجور السالبة التي جعلها الله تعالى خصائص فطرية في النفس البشرية(الهلع، الضعف، العجلة، الكبر، الشح، البخل، الحسد...إلخ) هي التي تجعل من طاعة الله فيما يأمر وينهى أمراً عسيراً على الإنسان تكرهه النفس، فتتمرد وتأبى زاعمة إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، أو كما استنكر قوم نبي الله شعيب: (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرَكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)(هود:87).

ويستخدم القرآن الكريم مفهومي "الحياة الدنيا" و"الدار الآخرة" لتلخيص مداخل البشر إلى الابتلاء الذي جعله الله حكمة لخلقهم، وجعل أصله ومجاله زينة الحياة الدنيا: (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)(الأعلى: 16-17)؛ (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ)(الأنعام: 32)؛ (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ)(الشورى: 20).

إن مجال الامتحان واحد، وإن مادته واحدة: "زينة الحياة الدنيا"؛ ولكن من قال: (إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)(المؤمنون:37)، أو قال: (رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ)(صّ:16)، فقد بنى حياته على مقصد دنيوي أساس، ألا وهو "تعظيم متاع الحياة الدنيا": (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ منَ اللهِ وَرِضَوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ)(الحديد:20).

أما من قال: (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عّذَابَ النَّارِ)(البقرة:201)؛ أو قال: (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هّذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)(غافر:39)، فقد بنى حياته على مقصد توحيدي أساس، ألا وهو "تعظيم الإيمان" من خلال "تعظيم العمل الصالح" في زينة الحياة الدنيا، باعتبارها مزرعة الآخرة، طمعاً في "تعظيم متاع الدار الآخرة": (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ)(الحديد:21)؛ (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ * أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)(القصص: 60-61).

لقد أرسل الله تعالى رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط في تدافعهم وتحصيلهم لحظوظهم من زينة الحياة الدنيا، وتبياناً لكل شيء حتى يحيى من حيّ عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة. وما كان الرسول الخاتم، صلى الله عليه وسلم، بدعا من الرسل، فقد جاءت شريعته في مقاصدها الكلية داعية إلى أن يكون حفظ "الإيمان" بالله تعالى المقصد الكلي

للمسلم الذي تتحدد بمقتضاه المقاصد الأخرى المحققة له، المتمثلة في حفظ أصول الظاهرة الاجتماعية التوحيدية(النفس، المال، البنون، العلم التوحيدي). ونقصد بالظاهرة الاجتماعية التوحيدية مجتمع التوحيد الذي يدخل بجميع تمظهراته في السلم، وهو كليّة "**الدين**" المقصود حفظها في مقاصد الشريعة الإسلامية. وهكذا جاءت أمهات الكتاب مؤكدة حفظ "**الإيمان**" والعمل الصالح: (وَالْعَصْرِ* إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)(العصر)؛ وحفظ مدخلات الإيمان من "النفس": (وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ)(الإسراء:33)؛ و"البنين": (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً * وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)(الأسراء، 31-32)؛ و"المال": (وَلاَ تَأكُلُواْ أَمَوالِكُ بَينَكُم بِالبَاطِلِ وَتُدلُواْ بِهَا إِلَى الحُكَّامِ لِتَأكُلُواْ فَرِيقاً مِن أَموَالِ النَّاسِ بالإثم وَأَنتُم تَعلَمُون)(188)(البقرة)؛ و"العلم": (وَلاَ تَقفُ مَا لَيسَ لَكَ بِه عِلمُ إِنَّ السَّمعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُوْلئِكَ كَانَ عَنهُ مَسئُولاً)(الإسراء:36).

إن العلاقة بين "**الإيمان**" من جهة وبين "**النفس**"، "**العلم**"، "**المال**" و"**البنون**" من جهة أخرى هي علاقة بين ناتج ومدخلاته الضرورية، حيث تتفاعل هذه الأخيرة لينتج عن هذا التفاعل "**التوحيد**" بوجهيه، العقدي(**الإيمان**) والعملي(**الشكر**). ولا يمكن حفظ "**الإيمان**" إلا بحفظ هذه المدخلات الضرورية، كما لا يمكن حفظ مجتمع التوحيد(**الدين**) على الدوام إلا بحفظ الإيمان ومدخلاته، وحفظ ميزان التفاعل بينها على الدوام، وهو معنى قوله تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُستَقِيماً فَاتَبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُم وَصَّآكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ)(الأنعام:153). لذلك يمكننا أن نفهم لماذا أصبحت المصالح التي تتأتى من هذه الأصول هي أصول المصالح الشرعية، وأن حفظ هذه الأصول الكلية هو الأصل الذي تتأسس عليه مقاصد الشريعة الإسلامية.

ولن يتأتى فهم المعنى الجامع للحفظ لهذه الكليات إلا من خلال تحليل التفاعل الكلي بين المتغيرات الكونية التي هي أصول الظاهرة الاجتماعية بمقتضى "العلم التوحيدي"، أو "الهوى". وإذا كانت المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية جاءت منزّلة على الأصول الكونية الكلية للظاهرة الاجتماعية فإن وسائل تحقيق تلك المقاصد من أحكام شرعية(عبادات، عادات، معاملات،

جنايات) جاءت متوافقة مع التفاعل الكلي لمتغيرات (النفس، المال، البنون) بمقتضى "العلم التوحيدي" وما يتعلق به من ملهمات التقوى، أو بمقتضى "الهوى" وما يتعلق به من ملهمات الفجور. فكانت العبادات (صلاة، زكاة، صوم، حج) آليات لتزكية النفس من "الهوى" الذي تتعلق به ملهمات الفجور، وتمكيناً "للعلم التوحيدي" الذي تتعلق به ملهمات التقوى. وكانت العادات تبياناً لما هو أحسن في علاقة النفس بالمال والبنين من عادات المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمنكح..إلخ. وكانت المعاملات تبياناً لما هو أصلح من علاقات بين الناس تحكم وتنظم تدافعهم في تحصيلهم لزينة الحياة الدنيا. وكانت الجنايات، حدوداً وتعازير، حياة لأولي الألباب من حيث قطعها الطريق على النفوس التي ألجمها "الهوى" فأرادت أن تفسد في الأرض بعد إصلاحها، جناية في حق المعبود"الله تعالى"، أو في حق العباد. وكانت من قبل شهادة "لا إله إلا الله" إيذاناً بتوقيع عقد الاستخلاف، اختياراً دون إكراه، والتزاماً بالوفاء بمقتضياته من واجب الشكر للمستخلِف"الله تعالى" من قبل المستخْلَف"الإنسان" فيما استخلف فيه"الأرض". وعلى الجملة فإن الشريعة الربانية- بمعناها القرآني لا الاصطلاحي- التي هي شرعة(مقاصد)، ومنهاج (وسائل)، هي الميزان الذي يقيم الوزن بالقسط في التفاعل بين المتغيرات التي هي أصول الاجتماع الإنساني(الإيمان، المتاع الدنيوي، النفس، العلم، الهوى، المال، البنون)، ولكن الإنسان هو المسؤول تكليفا عن إقامة هذا الميزان بالقسط أو إخساره.

إن خيار "الحياة الدنيا" وخيار "الدار الآخرة" يمثلان رؤى كونية متباينة في تفاعل النفس مع زينة الحياة الدنيا(المال، البنون)، الأول من منطلقات الهوى والكفر في النفس، والثاني من منطلقات العلم والإيمان المفضية إلى الشكر. ويقابل كلّا من هاتين الرؤيتين الكونيتين نظام معرفي ترتب في إطاره المشاهدات الحسية، وتختمر في بوتقته التجارب الشخصية مع العالم الخارجي لأولئك الذين يستبطنونه، فتتحدد بذلك الأسئلة العلمية التي تستحق الاثتثارة والبحث في مجال الطبيعة والمجتمع، ويتحدد تبعاً لذلك نوع الإجابة العلمية المقبولة لتلك الأسئلة، ومن ثم توضع السياسات المناسبة، العام منها والخاص.

إن جميع التحديات التي تواجه البشرية اليوم إنما تتم صياغتها كقضايا معرفية تتم دراستها وتحدد السياسات العالمية والقومية تجاهها من خلال النظام

المعرفي الوضعي الدنيوي المنبثق تاريخيا من خيار "الحياة الدنيا"، أو بتعبير آخر من "رؤية العالم الدنيوية"، والذي نما وترعرع ثم توطّن في التجربة الحضارية الغربية المعاصرة، المهيمنة بطغيانها اليوم على جميع المجتمعات البشرية عبر مؤسسات الأمم المتحدة، وشركات ومؤسسات ومنظمات الدول الغربية والرأسمالية العالمية.

نختتم هذا الإطار النظري لأصول الاجتماع الإنساني في التصور القرآني بتلخيصه في الرسم البياني في الشكل أدناه، الذي يغني بوضوحه عن شرحه. تتجاوز رؤية العالم التي يلخصها هذا النظام الخصوصية الإسلامية إلى العالمية الإنسانية؛ والذاتية إلي الموضوعية العلمية، لأنها تمكّن من تأسيس علوم اجتماعية ذات قدرة تفسيرية لكل الظواهر الاجتماعية، سواء الناجمة عن التمظهرات التاريخية لنظام الاجتماع التوحيدي، أو تلك الناجمة عن التجليات التاريخية لنظام الاجتماع الدنيوي. كذلك تمكّن من تأسيس علوم معيارية تنبني على تعظيم العمل الصالح في زينة الحياة الدنيا في إطار نظام الاجتماع التوحيدي، أو على تعظيم المتاع الدنيوي في إطار نظام الاجتماع الدنيوي.

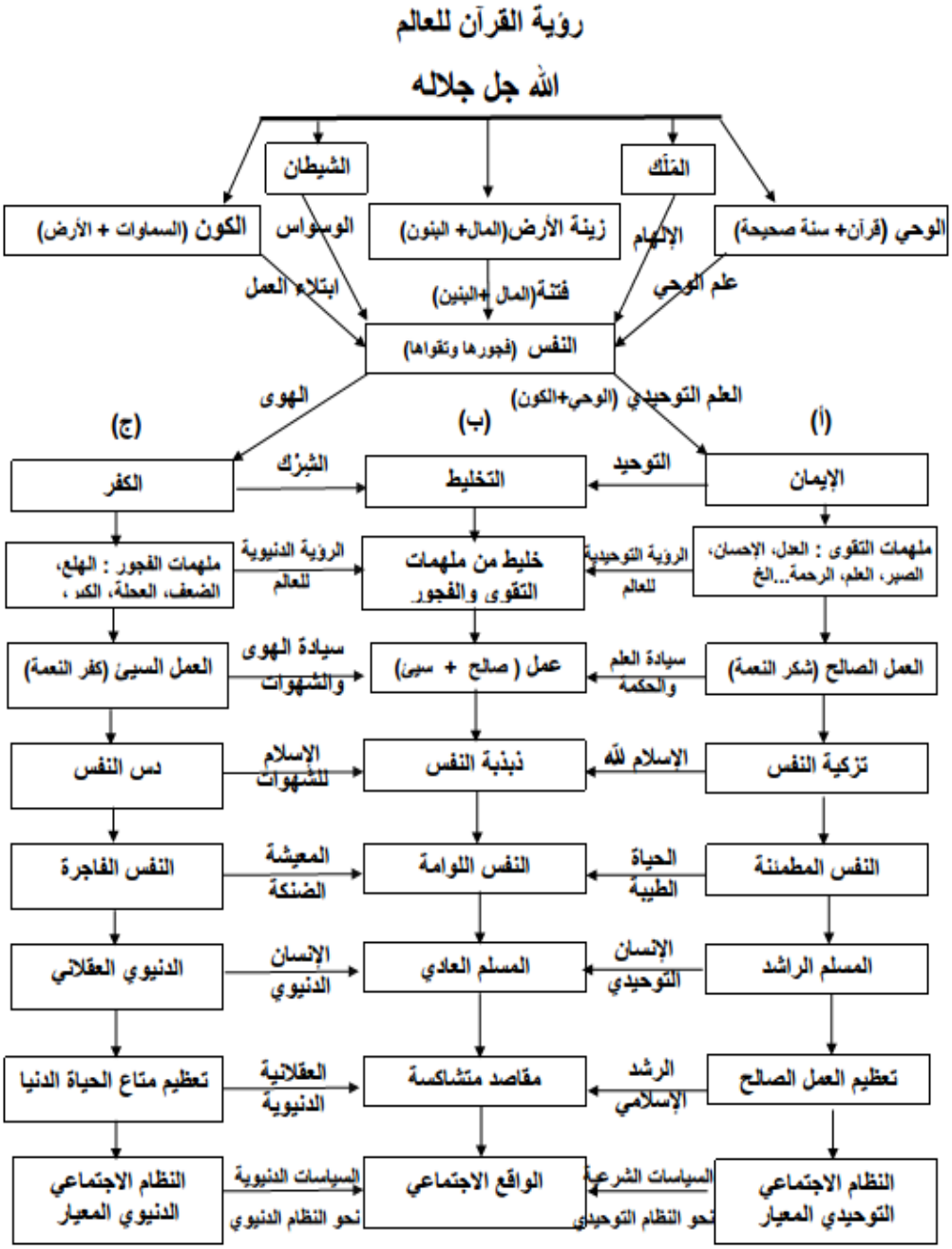

بروفيسور/ محمد الحسن بريمة إبراهيم /معهد إسلام المعرفة (إمام) / جامعة الجزيرة
mbiraima@gmail.com

إن هذه الرؤية الشاملة لعالم الاجتماع الإنساني تتكوّن من رؤيتين معياريتين هما: "رؤية العالم التوحيدية" التي يمثلها عمود الصناديق (أ) في أقصى يمين الرسم، و"رؤية العالم الدنيوية" التي يمثلها عمود الصناديق (ج) في أقصى يسار الرسم؛ وما بينهما **(ب)** فضاء اجتماعي تتداخل وتتدافع فيه قوى التأثير من كلا الرؤيتين.

إن جوهر الرؤية التوحيدية هو الدالة التوحيدية(دالة الإيمان) التي يمثل **"الإيمان"** متغيرها المقصود بالتعظيم، ومتغيرات **"النفس المطمئنة"**؛ **"العلم التوحيدي"**؛ **"المال"**؛ **"البنون"**؛ متغيراتها التي تتفاعل فيما بينها بما يحقق تعظيم **"الإيمان"**؛ فهي إذن دالة تعبر عن علاقة بين ناتج ومدخلاته. هذه الدالة تتأسس عليها نظرية المسلم الراشد الذي توحدت مقاصده الحياتية مع مقاصد الشارع، ويوظف أكثر الوسائل المشروعة فعالية وبفاعلية في سبيل تحقيقها، فهو بذلك عقلاني أيضا. الضرورات الحيوية(الجوع، العطش، العري، الإضحاء، العنت) تدفع المؤمن إلى الوفاء بمقتضياتها من زينة الحياة الدنيا(المال، البنون)، ولا يكون ذلك عادة إلا بعمل. والعلم، الذي توحّد فيه الدور العقدي والدور الوظيفي، يبّين آيات الله في المال والبنين، دليل إيمان بالله الواحد، ويبيّن النعمة فيهما، مصالح يطلبها المؤمن شكراً، والفتنة فيهما فيتجنبها رشداً. ثم يفصّل هذا العلم الأحكام الشرعية الضابطة للعمل ليعمل المؤمن بمقتضاها جلباً لمصالحه، في العاجل والآجل، ويحدد هذا العلم نوع العمل الراشد ووسائطه المؤسسية الأحكم، ووسائله الطبيعية الأفعل في تحقيق تلك المصالح. هذه جميعها حلقات من العلم الضروري لا تنفصم عراها دون أن تترك عجزاً كاملاً لدى المؤمن عن العمل الحضاري الراشد في زينة الحياة الدنيا. والإيمان المتجذّر في النفس التي تزكّت يدفع المؤمن الراشد لتحري قصد الشارع في المال والبنين فيقف عنده، استعصاماً من فتنة الشهوة فيهما. والعمل الصالح الذي تمّ، والمصلحة التي تحققت، شكراً لله، يعود أثرهما على الإيمان فيزداد المؤمن إيماناً مع إيمانه، وتزداد النعمة وتدوم بإذن الله.

إن جوهر الرؤية الدنيوية هو الدالة الدنيوية(دالة المتاع الدنيوي) التي يمثل "المتاع الدنيوي" متغيرها المقصود بالتعظيم، وتمثل "النفس الفاجرة"؛ "الهوى"؛ "المال"؛ "البنون" متغيراتها التي يؤدي تفاعلها فيما بينها إلى تعظيم المتاع الدنيوي؛ فهي إذا دالة تعبر عن علاقة بين ناتج ومدخلاته. هذه الدالة تتأسس عليها نظرية الإنسان الدنيوي العقلاني الذي توحدت مقاصده في "تعظيم متاع الحياة الدنيا"، ويوظف أكثر الوسائل فعالية وبفاعلية في سبيل تحقيقها، ومن هنا جاءت الصفة عقلاني.

ضرب الله تعالى لنا أمثالا في القرآن الكريم قارن فيها بين أهم مخرجات نظام الاجتماع التوحيدي متمثلة في المسلم الراشد، وبين أهم مخرجات نظام الاجتماع الدنيوي متمثلة في الإنسان الدنيوي، فقال: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبداً مَّملُوكاً لاَّ يَقدِرُ عَلَى شَيءٍ وَمَن رَّزَقنَاهُ مِنَّا رِزقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنهُ سِراً وَجَهراً هَل يَستَوُنَ الحَمدُ للهِ بَل أَكثَرُهُم لاَ يَعلَمُونَ)(75)؛ (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلَينِ أَّحَدُهُمَا أَبكَمُ لاَ يَقدِرُ عَلَى شيءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَولاُ أَينَمَا يُوَجِهّهُّ لاَ يَأتِ بِخَيرٍ هَل يَستَوِى هُوَ وَمَن يَأمُرُ بِالعَدلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّستَقِيمٍ)(76)(النحل)؛ (ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لَّرِجُلٍ هَل يَّستَوِيَانِ مَثَلاً الحَمدُ للهِ بَل أَكثَرُهُم لاَ يَعلَمُونَ)(29)(الزمر).

الإسلام الذي جاء به محمد، صلى الله عليه وسلم، هو التجلي التاريخي الأتم **لرؤية العالم التوحيدية**، من حيث التطبيق المنهجي، القائم على العلم التوحيدي، لأصولها الكلية وتفاصيلها الجزئية، ومن حيث مآلاتها ونتائجها الحتمية. **الرأسمالية الغربية** المعاصرة، في رأي الباحث، هي التجلي التاريخي الأتم حتى الآن **للرؤية الدنيوية**، من حيث التطبيق المنهجي، القائم على العلم بظاهر من الحياة الدنيا، لأصولها الكلية وتفاصيلها الجزئية، ومن حيث مآلاتها ونتائجها الحتمية.

إنّ **خطة الخلق العامة**، على المستوى المعرفي، هي تجريد نظري كلي للتصور القرآني للاجتماع الإنساني، يبين الحقيقة المطلقة لمتغيراتها، وحقيقة التفاعل الدائم بينها، والسنن الإلهية التي تحكم ذلك التفاعل، ومآلاته المختلفة، في الدنيا والآخرة. وهي على الصعيد الوجودي تدبير إلهي مُحْكم خرج من مشكاة العلم الإلهي قضاء إلى مجال التحقق الفعلي في الزمان والمكان قدرا، وهي السبب في خلق السماوات والأرض: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرشُهُ عَلَى المَاءِ لِيَبلُوَكُم أَيُّكُم أَحسَنُ عَمَلاً وَلَئِن

قُلتَ إِنَّكُم مَّبعُوثُونَ مِن بَعدِ المَوتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِن هَذَا إِلاَّ سِحرٌ مُّبِينٌ)(7)(هود). وهي تتكشّف لحظة بلحظة منذ بداية خلق الكون إلى قيام الساعة، فليست هناك لحظة واحدة يكون فيها الكون على حالته التي كان عليها قبلها. والله تعالى هو القائم عليها يدبّر أمرها، وهو سبحانه الضامن لتحققها قدرا كما قضاها علما، ويصدّق القرآن ذلك في آيات بينات: (وَمَا تَكُونُ فِي شَأنٍ وَمَا تَتلُواْ مِنهُ مِن قُرءَانٍ وَلاَ تَعمَلُونَ مِن عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيكُم شُهُوداً إِذ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِثقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصغَرَ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)(61)(يونس)؛ (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيبِ لاَ يَعلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعلَمُ مَا فِي البّرِ وَالبَحرِ وَمَا تَسقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرضِ وَلاَ رَطبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَبٍ مُّبِينٍ)(59)(الأنعام)؛ (الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها، ثم استوى على العرش، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون)(2؛ الرعد)؛ (يَسئَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَّرضِ كُلَّ يَومٍ هُوَ فِي شَأنٍ)(29)(الرحمن)؛ (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ وَإِذَا قَضَى أَمراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ)(117)(البقرة)؛ (أَلَم تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرضِ وَالفُلكَ تَجرِي فِي البَحرِ بِأَمرِهِ وَيُمسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرضِ إِلاَّ بِإِذنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)(65)(الحج)؛ (اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لاَ تَأخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَومٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرضِ مَن ذَا الَّذِي يَشفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذنِهِ يَعلَمُ مَا بَينَ أَيدِيهِم وَمَا خَلفَهُم وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيءٍ مِن عِلمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ وَلاَ يَؤُدُهُ حِفظُهُمَا وَهُوَ العَلِّي العَظِيمُ)(255)(البقرة). لذلك فإن البحث العلمي في التمظهرات التاريخية **لخطة الخلق العامة** سوف يثري فهمنا لحقيقتها النسبية المقيّدة بالزمان والمكان، وحقيقة التفاعلات بين متغيراتها المتجلية في الزمان والمكان، والكيفيات التي يتم بها ذلك التفاعل عبر التاريخ، وكيفية عمل آيات الله في الأنفس والآفاق بما يكيّف ذلك التفاعل، حتى يتبين لنا أنه الحق.

أن الظواهر الاجتماعية، مهما بدا تنوع تمظهراتها اللامتناهي في الزمان والمكان، ينتهي أمر تفسيرها إلى التفاعل، في ذلك الزمان والمكان، بين كل، أو بعض المتغيرات الضرورية الكلية المنشئة للاجتماع الإنساني كما تبينها "خطة الخلق العامة"، وهي المتغيرات السبعة المنحصرة في: الإيمان؛

المتاع الدنيوي؛ النفس؛ العلم؛ الهوى؛ المال؛ البنون. والسبب في قدرة هذه المتغيرات المحدودة على إنتاج هذا التنوع اللامحدود في التمظهرات الاجتماعية يرجع إلى الخاصية الفريدة للنفس البشرية من حيث تميّز كل نفس عن غيرها من الأنفس، فليست هناك نفسان تتطابقان في خصائصهما، بل كل نفس تمثل بصمة خاصة بصاحبها، وتصبغ كل فعل يفعله بصبغتها الفريدة. لذلك إذا كان لدينا مليار شخص، مثلا، متواصلين في الزمان والمكان فهذا يعني أن لدينا مليار متغير "نفس" تصبغ كل واحدة منها بقية المتغيرات الستة بصبغتها، مما يعني أن لدينا عمليا سبعة مليار متغير تتفاعل مع بعضها في الزمان والمكان.

3- الحركة الكونية للإنسان في رؤية القرآن للعالم[6]

الآن أنتقل من الحديث عن رؤية القرآن لعالم الاجتماع الإنساني(**خطة الخلق العامة**) إلى مآلاتها فيما يتعلق بحركة الإنسان الكونية كضرورة حتمية للتفاعلات الزمانية والمكانية للمتغيرات المنتجة ل**خطة الخلق العامة** على المستوى الوجودي. وسوف أبدأ بطرح الأسئلة الوجودية الضرورية من وحي القرآن الكريم، والإجابة اللاحقة عنها سوف تؤكد حتمية الحركة الكونية للإنسان.

1.3- الأسئلة الوجودية

1.1.3- السؤال الأول: التكافؤ بين العمل الإنساني والخلق الكوني

هذا السؤال نشأ من فهمي لقول الله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ

[6]- نسخة مختصرة من هذا الجزء من البحث كانت قد نشرت في مجلة إسلامية المعرفة، السنة الحادية والعشرون، العدد83، شتاء 1437ه/1016م (ص 151- 179).

مُبِينٌ)(هود). و"ليبلوكم أيكم أحسن عملاً" هذه أفهم أن من ضمن دلالاتها في هذا السياق هو تعليل خلق السموات والأرض، ولذلك جعل الله تعالى الكون(السموات والأرض وما بينهما) مسخرا للإنسان: (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣)(الجاثية). وفهمي هذا يؤيده ما جاء في التفاسير بخصوص هذه الآية، ففي روح المعاني للألوسي جاء ما يلي: (*لِيَبْلُوَكُمْ اللام للتعليل مجازا متعلقة ب خَلَقَ أي خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات التي من جملتها أنتم، ورتب فيهما جميع ما تحتاجون إليه من مبادئ وجودكم وأسباب معاشكم وأودع في تضاعيفهما ما تستدلون به من تعاجيب الصنائع والعبر على مطالبكم الدينية ليعاملكم معاملة من يختبركم*). وجاء في تفسير ابن كثير الآتي: (*وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا} أَيْ: خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِنَفْعِ عِبَادِهِ الَّذِينَ خَلَقَهُمْ لِيَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَمْ يَخْلُقْ ذَلِكَ عَبَثًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} [ص:27] ، (6) وَقَالَ تَعَالَى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} [الْمُؤْمِنُونَ:115، 116] ،*).

إذا صح هذا الفهم فإن هذا يعني أن الله تعالى خلق السموات والأرض لحكمة تتعلق بالإنسان، وهذه الحكمة تتعلق تحديدا بابتلاء وامتحان الإنسان في عمله. وهناك الكثير من التفاصيل التي تتعلق بهذا الابتلاء وطبيعته فصّلناه في القسم السابق عند الحديث عن **"خطة الخلق العامة"**، وكذلك فصّلناه في بحوثنا الأخرى المنشورة والمرفوعة على موقعي بالإنترنت[7]، ولكن الشاهد في هذا الحديث وما سوف أرتبه عليه لاحقا من استنتاجات علمية أن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا عن بداية خلق الكون(السموات والأرض) كيف كان فقال: (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي

6- أنظر أبحاثنا التي تحيط بموضوع الابتلاء(خطة الخلق العامة) في موقعنا على الإنترنت (biraima.net).

أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ). وقد أخبرنا الله تعالى أن خلق الماء كان قبل خلق السماوات والأرض: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ). كان هنا فعل ماضٍ دل على سبق خلق العرش والماء، ثم خلق السموات والأرض من بعد ذلك؛ وخلْق الأرض وجعْلها تم قبل خلق وجعل السموات السبع رغم أنهما كانتا رتقا ثم فتقتا. ونستنتج من ذلك أن المادة التي خلقت منها السماوات والأرض واحدة في أصلها.

لقد وصف الله تعالى في القرآن الكريم الأرض، من حيث خلقها ومن حيث جعلها، وصفا دقيقا كما لم يصف مخلوقا آخر، وإنما ذلك لأهميتها المركزية في (**خطة الخلق العامة**) التي من أجلها خلق الله السماوات والأرض، وذكر أنه خلق ما في الأرض جميعا للناس. ونسوق بعض الآيات التي تبين الخصائص البيئية للأرض التي بها تُباين باقي الكواكب والنجوم في الكون:

1- (وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٣﴾)(النازعات)؛

2- (وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي

ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ
مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ
صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي
ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ
﴿٤﴾)(الرعد)؛

3- (ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا
وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ
﴿٥٣﴾)(طه)؛

4- (فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا
﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾
وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾
وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٢﴾)(عبس)؛

5- (قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠)(فصلت).

لذلك نسلّم بأنه حيثما ذكرت الأرض في القرآن الكريم، باستثناء يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، وهو يوم القيامة، فالمقصود هو هذه الأرض التي فصّل القرآن الكريم وصف بيئتها، وأخبر أن الله تعالى بارك فيها وأصلحها لتناسب حياة البشر وما خلق لهم فيها من حيوان ونبات.

من عالم الغيب المطلق، ومن علم الله تعالى في أم الكتاب، جاء الكون إلى الوجود، متحيزا في الزمان والمكان، ومتشكلا عبر مليارات السنين، محكوما بقضاء الله وقدره(كن فيكون) لينتهي يوما ما كما بدأ: (يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٠٤)(الأنبياء). والحمد لله أن العلم لم يعد ينازع في النهاية المحتومة للكون الذي نعرفه. وفي إطار هذه التمظهرات الوجودية والصيرورة الزمانية يأتي الإنسان أيضا من عالم الغيب ليستقر في الأرض محققا مغزى الابتلاء، وحكمة خلق السماوات والأرض. وقد نَحَتّ مصطلحا لكل هذا التفاعل والنبأ العظيم في أبحاثي التي أشرت إليها أعلاه، وهو مصطلح "**خطة الخلق العامة**". وكما يعود الكون من حيث بدأ: (يَوۡمَ

تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿٤٨﴾(إبراهيم)، يعود الإنسان الفاعل في هذا الكون من حيث جاء: (وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٩٤﴾(الأنعام)، إذ يقوم الناس ليوم الحساب فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز.

ولكي يستقيم منطق **"خطة الخلق العامة"** مع هذه البدايات والنهايات العظيمة للكون فإن العقل يحكم بأنه فيما بينهما يُتوقع أن يأتي الإنسان، الذي من أجل عمله خُلِق هذا الكون، بأعمال عظيمة في صلاحها، أو في فسادها، تكافئ عظمة هذا الكون والحكمة من خلقه، وتكافئ نهايته وزلزلة الساعة: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢)(الحج)، والمصير النهائي للإنسان: (فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧)(الشورى)، خالدين فيها ما

دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك. من هذه القضية بالتحديد جاء السؤال الوجودي الأول، وهو الآتي:

أولا؛ إن هذه الأرض التي نعرفها ونعيش فيها، هي من الصغر الجغرافي(مطلقا، أو منسوبة إلى الكل الكوني) بحيث أنها، أولا؛ لا تستحق وحدها أن يُخلق من أجلها ومن أجل ما يجري فيها كل هذا الكون المهيب ببداياته ونهاياته العظيمة التي ذكرناها آنفا. ثم، ثانيا؛ إنها بصغر حجمها هذا لا تمكّن البشر من الزيادة العددية المناسبة، أو أن يأتوا من الأعمال ما يكافئ في عظمته عظمة الخلق الكوني هذا. إذن ما هي حقيقة الأرض المستخلف فيها الإنسان المحققة لمبدأ التكافؤ بين العمل الإنساني والخلق الكوني؟

النتيجة هي: لابد من إعادة فهمنا لحقيقة الأرض كما وردت في القرآن الكريم.

ثانيا؛ إن الأعمال التي جاء بها الإنسان منذ تمكينه في أرض السماء الدنيا التي نعيش فيها وإلى اليوم؛ مما وثّقه القرآن، أو دوّنته الأقلام، في صلاحها وفسادها، إذا استثنينا الرسل وحواريهم وقليلا من الآخَرين من أهل الصلاح والفساد، من التواضع بحيث يحكم العقل، ما لم يناقض الوحي، أنها لا تساوي الحد الأدنى الذي يكافئ عظمة بدايات ونهايات الخلق الكوني المرتبطة، من حيث العلّة، بهذا العمل الإنساني. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المفارقة بين تواضع الفعل الإنساني التاريخي وبين المطلوب منه بما يكافئ عظمة الخلق الكوني، بداية ونهاية، فقال تعالى: (قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمۡ عَنۡهُ ﴿٦٨﴾ مُعۡرِضُونَ)(ص).

إذن، نتيجةً: ينبغي إعادة النظر من المنظور القرآني في طبيعة الأعمال العظيمة التي يمكن أن يأتي بها الإنسان، والمجال

الكوني الذي يمكن أن تتحقق فيه، بما يحقق التكافؤ المطلوب بين العمل الإنساني والخلق الكوني.

ثالثا؛ إن تسخير ما في السماوات وما في الأرض جميعا للإنسان: (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣)(الجاثية)، واعتبار ذلك ضمن مغزى التكليف الابتلائي: (وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰت وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ ٧)(هود)، يقتضي أن يُمكّن الإنسان من الوصول إلى تلك القوى المسخرة له، وتوظيفها فيما يعمل من صلاح، أو فساد، ولا سبيل إلى ذلك بصورة فعالة إلا بالحصول على علم دقيق بحقيقتها ومُتاحاتها، ويقتضي ذلك الوصول إلى مصادر تلك القوى المسخرة من سماوات وأرض. يعزز هذه الدعوى الكثير من آيات القرآن الكريم من مثل قوله تعالى: (ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ

قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾(الطلاق). فلكي نعلم حقيقة تنزل الأمر الإلهي بين هذه العوالم المهيبة يقتضي ذلك أن يجوب الإنسان هذه العوالم مستكشفا. كذلك قول الله تعالى في سورة نوح عليه السلام: (أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴿١٦﴾)(نوح)، لا مغزى له ولا حجة فيه إلا إذا كان الإنسان قادرا على الاستكشاف العلمي لهذه السموات السبع ليرى كيف خُلقت طباقا، وكيف جعل الله في كل منها الشمس سراجا والقمر نورا، تماما كقول الله تعالى: (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾). الخطاب هنا واحد بالنظر والرؤية العلمية في الكيفيات المتعلقة بهذه المخلوقات، وإذا كان الإنسان متمكنا اليوم من النظر العلمي في الكيفيات المتعلقة بالإبل والجبال والأرض لأنها في متناوله فإن منطق الخطاب القرآني المتسق يقتضي أن تكون السماء في متناوله كذلك، ولو بعد حين.

النتيجة: يقتضي هذا إعادة فهمنا لما جاء في القرآن الكريم عن علاقة الإنسان بهذا الكون المسخّر، وأبعاد فاعليته فيه.

2.1.3- السؤال الثاني: البعد الزماني للإنسان في الأرض ودلالته على حركته الكونية

جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: *(رأيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتي تلي الإبهام: بعثت أنا والساعة كهاتين)*[8]، أي الفارق بين بعثتي وقيام الساعة كالفرق بين الأصبعين في الطول. ويؤكد القرآن الكريم قرب الساعة: (ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١)(القمر)، وأيضا قوله تعالى: (فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ١٨)(محمد).

قبل أن أوضح ما يدل عليه هذا الحديث بالنسبة لي فيما يلي موضوع هذا البحث أنقل الآتي عن دلالة الحديث من الموقع الإلكتروني (الإسلام سؤال وجواب) المشرف عليه الشيخ محمد صالح المنجد:

"أولاً؛ أخرج هذا الحديث الإمام البخاري في صحيحه(6140) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَة كَهَاتَيْن)، يعني: إصبعين، وجاء عن سهل بن سعدٍ الساعدي رضي الله عنه مرفوعا بلفظ (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعة هكذا- ويشير بأصبعيه فيمدُّ بهما)، رواه البخاري(6138)، ومسلم(2950)، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه(867) عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب

[8]- البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل. صحيح البخاري، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1411ه/1991م، كتاب: تفسير القرآن، باب: يوم ينفخ في الصور فتاتون أفواجا، ج6، حديث رقم 4936، ص 94.

احمرَّت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول "صبَّحكم ومسَّاكم"، ويقول: (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَة كَهَاتَيْنِ) ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى. وخرج الإمام أحمد(36/38) بإسناد حسن من حديث بريدة (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَة جَمِيعا إِنْ كَادَتْ لَتَسْبِقُنِي).

ثانياً؛ أما بخصوص من يقول إن بيننا وبين ورود الحديث أكثر من ألف وأربعمائة سنة فكيف يقول الله تعالى (اقتربت الساعة)، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَة كَهَاتَيْنِ)؟ فالجواب عليه من وجوه، أبرزها:

1- أن المعنى: أنه ليس هناك نبي آخر بعد النبي صلى الله عليه وسلم.

قال أبو حاتم بن حبان رحمه الله:

"يُشبه أن يكون معنى قوله صلى الله عليه وسلم (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَة كَهَاتَيْنِ) أراد به: أني بُعثت أنا والساعة كالسبابة والوسطى من غير أن يكون بيننا نبي آخر؛ لأني آخر الأنبياء وعلى أمتي تقوم الساعة"انتهى"، من صحيح ابن حبان(13/15).

وقال القرطبي رحمه الله: أول أشراط الساعة: النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه نبي آخر الزمان ، وقد بُعث وليس بينه وبين القيامة نبي"انتهى من التذكرة (ص 111)".

2- أن المعنى: هو القرب الذي في علم الله تعالى وحسابه، لا في علم البشر وحسابهم. قال الشيخ عمر الأشقر حفظه الله: "قد يقال: كيف يكون قريباً ما مضى على الإخبار بقرب وقوعه ألف وأربعمائة عام؟

والجواب: أنه قريب في علم الله وتقديره، وإن كانت المقاييس البشرية تراه بعيداً (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا)(المعارج، 6 - 7)، " انتهى من " القيامة الصغرى" (ص 115).

3- أن المعنى: أن بين بعثة النبي، صلى الله عليه وسلم، وقيام الساعة شيء

يسيرٌ بالنسبة لما مضى من الزمان.

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله:

"وهذا يدل على قربها، لكن مع ذلك كم بيننا وبين الرسول، صلى الله عليه وسلم؟ نحن في القرن الخامس عشر الهجري بعد بعثة الرسول، صلى الله عليه وسلم، بثلاث عشرة سنة، ومع ذلك ما زالت الدنيا باقية مما يدل على أن ما مضى طويل جدّاً، حتى إن الرسول، صلى الله عليه وسلم، عند غروب الشمس قال (إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ الدُّنْيَا- يعني: بالنسبة لمن سبقكم- فِيمَا مَضَى مِنْهَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا)، رواه الترمذي وحسَّنه "وضعفه الألباني في "ضعيف الترغيب والترهيب" برقم (1641). انتهى من " تفسير القرآن من الحجرات إلى الحديد" (ص 361).

وقال الشيخ عمر الأشقر حفظه الله:

"والأمر الذي ينبغي أن يُنتبه إليه: أن الباقي من الدنيا قليل بالنسبة لما مضى منها، فإنك إذا وضعتَ لمن لك عليه دين أجلاً طويلاً كأن توجله خمسين عاماً- مثلاً-، فإذا انقضى من الخمسين خمسة وأربعون فيكون موعد السداد قد اقترب بالنسبة لما مضى من الموعد المضروب، والأحاديث النبوية الشريفة تشير إلى هذه الحقيقة التي بيَّناها هنا، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إِنَّمَا أَجَلُكُمْ فِى أَجَلِ مَنْ خَلاَ مِنَ الأُمَمِ مَا بَيْنَ صَلاَةِ الْعَصْرِ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ)[9]، وفي لفظ (إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنْ الْأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ)[تنبيه: رواه البخاري باللفظين دون مسلم).

إن الحديث يمثل الوجود الإنساني بيوم من أيام الدنيا، ابتدأ وجود الأمة الإسلامية فيه عند العصر فيكون الماضي من عمر الوجود الإنساني بنسبة ما مضى من ذلك اليوم من الفجر إلى العصر، ويكون الباقي من عمر الزمن حتى

[9]- المرجع السابق، كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل القرآن على سائر الكلام، ج6، حديث رقم 5021، ص 130.

تقوم الساعة كما بين العصر والمغرب، ذلك أن النصوص صريحة الدلالة على أننا آخر الأمم وجوداً، وأن نهاية وجود هذه الأمة يتحقق بقيام الساعة.
وجاء في حديث آخر يرويه البخاري ومسلم عن سهل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ)- ويشير بأصبعيه فيمدهما-، ورواه مسلم عن سهل بلفظ: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشير بإصبعه التي تلي الإبهام والوسطى وهو يقول (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ هَكَذا).
والمعنى: أننا لو قدَّرنا عمُر الزمن بالأصبع الوسطى فإن ما بقي منه عند مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم يكون بمقدار ما تزيد الوسطى عن السبابة، وما مضى منه بمقدار السبابة من الأصبع الوسطى. قد يكون الباقي في حِسّ البشر طويلاً لأن إدراكهم محدود ونظرتهم قاصرة، ولكنه في ميزان الله قريب وقصير(أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)(النحل،1)، (وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ)(النحل، 77).
وروى الإمام أحمد عن عتبة بن غزوان قال: خطبنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِصُرْمٍ وَوَلَّتْ حَذَّاءَ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاَّ صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ يَتَصَابُّهَا صَاحِبُهَا وَإِنَّكُمْ مُنْتَقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لاَ زَوَالَ لَهَا فَانْتَقِلُوا بِخَيْرِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ...)، انفرد به مسلم" انتهى من "القيامة الصغرى"، (ص 116- 117).
ثالثاً؛ لا يشك مسلم في ثبوت قرب الساعة، وكيف يفعل ذلك وقد ذكر الله تعالى ذلك في كتابه الكريم بأوضح عبارة وأجلى بيان؟! قال تعالى: (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ)(الأنبياء، 1)، وقال جل وعلا: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ)(القمر، 1)، وقال: (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً)(الأحزاب، 63) ، وقال جل وعلا: (أَزِفَتِ الْآزِفَةُ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ)(الذاريات،57). تفسير القرآن "من الحجرات إلى الحديد" للشيخ ابن عثيمين رحمه الله(ص 361) أه.

أولا؛ ليس من أغراضي، ولا ينبغي لي، الخوض في متى تقوم الساعة فقد قال الله تعالى في ذلك: (وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٧٧﴾)(النحل)، فذلك أمر اختص به الله تعالى كما قال: (يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٧﴾)(الأعراف).

ثانيا؛ غرضي الأساسي هنا أن أوظف الدلالات الحسابية للحديث الشريف مستفيدا من تقديرات علم الفيزياء الفلكية لما مضى من عمر الكون لدعم نظريتي المتعلقة بالحركة الكونية للإنسان في القرآن الكريم.

ثالثا؛ الكثير من المسلمين الآن يعزف عن بذل الوسع في العمران الاستخلافي ويثبطون همم غيرهم عن ذلك بدعوى قرب قيام الساعة، فإذا استطعنا أن نعطي أرقاما علمية نسبية عما تبقى من عمر الكون، سواء باعتمادنا على علم الفيزياء الفلكية وحده، أو جمعا بين الدلالات الحسابية للحديث الصحيح، والتقديرات الحسابية لعلم الفيزياء الفلكية، وما يعنيه ذلك بالنسبة لقرب الساعة، وبالنسبة لما يتوقع أن تنجزه البشرية خلال ذلك فلربما عادت الأمة إلى جادة الصواب في تحمل مسؤولياتها الاستخلافية.

الدلالة الحسابية لهذا الحديث الشريف بالنسبة لي هي أن الأصبع الوسطى في طولها تعبر عن جملة عمر الكون(السموات والأرض وما بينهما)

منذ بداية خلقه إلى نهايته وقيام الساعة، بينما الأصبع السبابة في طولها تعبر عما مضى من عمر الكون إلى عهد بعثته، صلى الله عليه وسلم، وأجد فيما نقلت سابقا من أقوال العلماء المسلمين ما يدعم هذا الفهم. فالحديث إذاً ينسب ما مضى من عمر الكون إلى جملته، وأن هذه النسبة تساوي نسبة الأصبع السبابة إلى الأصبع الوسطى، من حيث الطول، مما يعني أننا لو استطعنا علميا أن نقدّر ما مضى من عمر الكون فإننا نستطيع كذلك أن نقدر ما تبقى منه إذا استطعنا أن نقدر نسبة الأصبع السبابة إلى الوسطى كما جاء في الحديث الشريف. نحن إذن نعتمد فيما نحن مقدمون عليه على صحيحين، صحيح الحديث الشريف فيما بقي من عمر الكون، وصحيح علم الفيزياء الفلكية فيما مضى منه.

بالنسبة إلى صحيح علم الفيزياء الفلكية في تقدير ما مضى من عمر الكون، فأستشهد هنا بهذا المقطع باللغة الإنجليزية من موسوعة ويكيبيديا:

(In physical cosmology, the **age of the universe** is the time elapsed since the Big Bang. The best measurement of the age of the universe is13.798±0.037 billion years ($13.798\pm0.037\times10^9$ years or $4.354\pm0.012\times10^{17}$ seconds) within the Lambda-CDM concordance model.[1][2] The uncertainty of 37 million years has been obtained by the agreement of a number of scientific research projects, such as microwave background radiation measurements by the Planck satellite, the Wilkinson Microwave Anisotropy Probe and other probes. Measurements of the cosmic background radiation give the cooling time of the universe since the Big Bang,[2] and measurements of the expansion rate of the

universe can be used to calculate its approximate age by extrapolating backwards in time).

ولتأكيد هذه الأرقام التقديرية التي جاءت في النص أعلاه عما مضى من عمر الكون يمكن الرجوع إلى عدد من المراجع العلمية الموثوقة وكذلك إلى الموقع الإلكتروني الحكومي لوكالة ناسا الفضائية.[10]

ليس غرضي دقة الأرقام وإنما الصورة الكلية للتقدير الزمني وهو أن ما مضى من عمر الكون يقدر علميا حتى الآن بمليارات السنين. الجدول أدناه يلخص التمرين الذي قمنا به لمقاربة الأمد الزماني لاقتراب الساعة جمعا بين صحيح الحديث الشريف وصحيح علم الفيزياء الفلكية، وذلك بافتراض نسبٍ مختلفة تعبّر عن نسبة الأصبع السبابة إلى الأصبع الوسطى رأي العين، لتفيد نسبة ما مضى من عمر الكون إلى جملته، ثم حساب ما بقي من عمر الكون بقسمة ما مضى منه(13.8 مليار سنة) بحسب علم الفيزياء الفلكية على (بسط) النسب المفترضة في الجدول. فمثلا إذا قدّرنا أن نسبة السبابة إلى الوسطى تساوي تسعة أعشار فهذا يعني أن تسعين في المائة من عمر الكون قد مضى، ولم يبق على نهاية الدنيا إلا عشرة في المائة فقط، وهذا يفيد معنى القرب حقا، ولكن هذا القرب الشديد عندما نترجمه إلى أرقام زمنية(13.8/9) فإنه يقاس بمليارات السنين(1.5). لذلك فإن الأمد الزمني لاقتراب الساعة، ونهاية الاستخلاف الإنساني على الأرض، بحسب حساباتنا هذه، يمتد من يوم واحد إلى مليارات السنين، بينما الأمد الزمني الفردي يمتد من يوم واحد إلى مائة عام. والقضية الجوهرية التي أريد التأكيد عليها هي أن نتصور، إنطلاقا من

[10]- Dinwiddie, Robert, and Others. Universe, New York: DK; Rev Upd edition(September 17, 2012), page 27;

- Adams, Fred, and Laughlin, Greg. The Five Ages of the Universe: Inside the Physics of Eternity, Free Press 2000, p xiii;

- http:/www.nasa.gov/mission_Pages/planck/multimedia/pia 16873.html#.VrZk3P197Z4.

إنجازات وإخفاقات الواقع البشري الحالي، ما يمكن أن يفعله ويعمله الإنسان من صلاح وفساد في الأرض خلال هذا الأمد الزماني المتطاول لعمر الكون الذي يمتد إلى مليارات السنين، وما يمكن أن ينجزه في مجال العلم والتكنولوجيا وتوظيفاتهما الكونية، وما سوف يؤول إليه أمر الأرض من حيث العمران وتدافع الإنسان، وسنن الله تعالى الحاكمة لهذا التدافع.

التقدير النسبي للمدى الزمني لاقتراب الساعة				
نسبة الأصبع السبابة إلى الأصبع الوسطى	تقدير ما مضى من عمر الكون (مليارات السنين)	حساب ما تبقى من عمر الكون	تقدير ما تبقىمن عمر الكون(مليارات السنين)	الأمد الزمني لاقتراب الساعة
$^{9}/_{10}$	14	$^{14}/_{9}$	1.56	يوم واحد ___ 1.56مليار سنة
$^{8}/_{9}$	14	$^{14}/_{8}$	1.75	يوم واحد____1.75مليار سنة
$^{7}/_{8}$	14	$^{14}/_{7}$	2.00	يوم واحد ____2.00مليار سنة
$^{6}/_{7}$	14	$^{14}/_{6}$	2.33	يوم واحد ____2.33مليار سنة
$^{5}/_{6}$	14	$^{14}/_{5}$	2.80	يوم واحد ____ 2.80مليار سنة
$^{4}/_{5}$	14	$^{14}/_{4}$	3.5	يوم واحد ____ 3.5مليار سنة
$^{3}/_{4}$	14	$^{14}/_{3}$	4.67	يوم واحد ___ 4.67مليار سنة

الذي استخلصه مما سبق، ومما سوف يلحق في هذا البحث إن شاء الله تعالى، هو أن استخلاف الإنسان القائم على الابتلاء الذي من أجله خلق الله تعالى السماوات والأرض كما يخبرنا القرآن الكريم إنما هو في بداياته، وسوف يمتد زمانا، تفاعلا وتدافعا، حتى يبلغ أمده الزماني المليارى، وسوف يمتد مكانا حتى يبلغ مداه الكوني السماوي.

هذه الدلالات الحسابية يحتملها الحديث النبوي الشريف، ولا تناقض الدلالة المعنوية التي وردت في حديث (أنا وكافل اليتيم كهاتين) المستخدم فيه ذات الأصبعين، فهما يشتركان في معنى القرب، إلا أن القرب في الحديث الأول يمكن، من حيث المبدأ، قياسه رقميا بينما القرب في الحديث الثاني لا

يمكن إلا الإحساس به معنويا. وعلينا أن نتذكر أنه يمكننا أن نحسب بدقة كبيرة بعضا مما تبقى من عمر الساعة الذي ورد في الحديث، وهي الفترة ما بين رواية الحديث إلى يومنا هذا مما يعطي، من حيث المبدأ، المشروعية لتوظيف العلم في تقدير آجال عمر الكون ومن ثم قرب الساعة، وليس لحظة قيامها.

هناك أيضا قضية الفجوة الزمنية الهائلة بين عمر الكون التقديري(13.8 مليار عام) بحسب علم الفيزياء الفلكية، وعمر قدوم الإنسان إلى الأرض(5 مليون عام) بحسب ما كشفت عنه حتى الآن حفريات وتقديرات علماء الأنثروبولوجيا.

نحن لا نحسن الظن بنظريات الأنثروبولوجيين فيما يتعلق بأصل الإنسان ونسبته إلى القرود وتطوره بعد ذلك، فالقرآن الكريم حسم هذا الأمر بآيات كثيرة تتعلق بأصل بني آدم الذي هو نبي مكرم خلقه الله في أحسن تقويم وعلمه الأسماء كلها ثم أهبطه إلى الأرض، والأطوار التي يمر بها الإنسان وذكرها القرآن الكريم هي أطوار من داخل النوع الإنساني لا من خارجه. ولكن ما يهم بحثنا هذا من مقولات الأنثروبولوجيا هو العمر الزمني للإنسان في الأرض، فليست هناك إشارة في القرآن الكريم، أو السنة النبوية الصحيحة، حسب علمي، إلى كم مضى من الزمان منذ أن هبط الإنسان إلى الأرض إلى بعثته صلى الله عليه وسلم، إلا أن القرآن الكريم يعطي موجهات منهجية بالسير في الأرض والنظر في كيف بدأ الخلق، وكيف كان عاقبة الذين من قبل، مما يعطي مشروعية علمية لعلم الأنثروبولوجيا فيما ليس فيه نص موحى من تاريخ الإنسان على الأرض. لذلك يظل تقدير خمسة مليون عام على وجود الإنسان في الأرض، رغم افتقاره إلى الدقة العلمية، هو أفضل تخمين علمي لدينا حتى الآن، لا سيما وأن الآثار التي تركها الأقدمون وراءهم في الأرض لا توحي بمدى زمني هو أبعد من ذلك.

والإشكال الوجودي الذي يطرحه البعد الزماني للإنسان يأتي من فهمنا القرآني أن الكون(السماوات والأرض وما بينهما) إنما خُلِق لحكمة تتعلق بخلق

الإنسان واستخلافه في الأرض، فكيف نعقل أن الكون الذي خُلق من أجل الإنسان ظل في انتظاره متشكلا عبر مليارات السنين ثم يأتي الإنسان المُستخلف في آخر خمسة مليون عام لتقوم الساعة، ولمّا يتعرّف الإنسان بعد حتى على الأرض التي هو مستخلف فيها دعك عن كل الكون الذي من أجله خُلق، وفيه يُبتلى، وبعمله فيه يحاسب؟ أضف إلى ذلك أن عدد سكان الأرض خلال هذه الفترة الزمنية المحدودة من عمر الإنسان كان قليلا جدا، حتى من إشارات القرآن الكريم بهذا الخصوص: (وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾)(الصافات)، والمجتمعات البشرية متفرقة، وتفصل بينها جغرافياً مساحات شاسعة من اليابسة والبحار، ولم تتكاثر أعداد البشرية لتصل إلى ما هي عليه اليوم إلا في القرون الأخيرة.

إذن ماذا نستنتج من كل هذه الدلالات الحسابية فيما يتعلق بموضوعنا؟

<u>النتيجة الأولى</u>؛ هي أن ننفي عقلا أن يكون الخالق سبحانه وتعالى قد خلق هذا الكون، الموغل في القدم، ببداياته ونهاياته العظيمة، الذي يستمد علّة خلقه من خلق الإنسان وابتلائه عملا وحركة فيه، من أجل هذه الفترة الزمنية المحدودة التي مكثها هذا الإنسان في هذه الأرض، وبأعداده وأعماله المتواضعة كما ونوعا؛

<u>النتيجة الثانية</u>؛ هي أن الأمر يستقيم عقلا إن سلّمنا بأن اقتراب الساعة ونهاية الكون إنما يقدر بمليارات السنين كما جاء في حساباتنا التقديرية السابقة، لأن هذه المليارات المتبقية للإنسان كخليفة عن الله في الأرض يترتب عليها، أولا؛ تحقيق تكافؤ نسبي

بين عمر الأرض وعمر الإنسان المستخلف فيها بما يزيل نسبيا إشكال الفجوة الزمنية بين عمريهما، ثم ثانيا؛ توقّع نتائج عظيمة من فعل الإنسان في هذا الكون، فيما تبقى من عمره، تكافئ عظمة الخلق الكوني، بداية ونهاية.

هذه النتائج العظيمة المتوقعة لعمل الإنسان، في فسادها وصلاحها، هي موضوع استشرافنا للحركة الكونية للإنسان في القرآن الكريم فيما تبقى من عمره الدنيوي، مما سوف نستعرضه فيما يلي من هذا البحث.

2.3- الفرضيات العلمية المجيبة عن الأسئلة الوجودية

سوف أستعرض فيما يلي الفرضيات العلمية التي استخلصتها من القرآن الكريم، والتي أحسب أن مضامينها تعطي إجابة شافية لما سبق من أسئلة وجودية، وسوف أدعم كل فرضية بالآيات القرآنية التي استوحيتها منها، إن شاء الله تعالى.

1.2.3- الفرضية الأولى:

الأرض، بقمرها وشمسها، لها ما يماثلها في كل سماء من السماوات السبع، وجميعها مستخلف فيها الإنسان.

هذه فرضية قويّة لأنها تشترط أرضا في كل سماء من السماوات السبع، وسوف نستغني لاحقا عن هذا الشرط مع الإبقاء على فرضية الأرضين السبع. هذه الفرضية تلخص استجابة القرآن الكريم، كما فهمتها، للسؤال الوجودي المتعلق بحقيقة الأرض فيه، وهي أن هذه الأرض التي يعيش فيها البشر الآن هي أرض السماء الدنيا، ولكن لها ما يماثلها من الأرض بقمرها وشمسها في كل سماء من السماوات السبع. هذا الفهم استنبطته من قول الله تعالى الوارد في الآيات الآتية:

1- (ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾)(الطلاق)؛

2- (يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾)(الرحمن)؛

3- ((وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾)(الزمر)؛

4- (هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾)(البقرة)؛

5- (أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦)(نوح)؛

6- (وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٢٢)(العنكبوت).

7- (وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ٢٩)(الشورى).

أستنبط من الآية الأولى أن الله تعالى خلق سبع سماوات تماثلهن من حيث العدد سبع من الأرض، وأستشهد لذلك بما جاء في تفسير ابن كثير لهذه الآية، إذ يقول: *"يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ التَّامَّةِ وَسُلْطَانِهِ الْعَظِيمِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ بَاعِثًا عَلَى تَعْظِيمِ مَا شَرَعَ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}، كَقَوْلِهِ تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}؟، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} أَيْ سَبْعًا أَيْضًا، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: «مَنْ ظَلَمَ قيد شبر في الْأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ». وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: «خُسِفَ بِهِ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ». وَقَدْ تقدم في سورة الحديد ذَكَرَ الْأَرَضِينَ السَّبْعَ وَبُعْدَ مَا بَيْنَهُنَّ وَكَثَافَةُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَهَكَذَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ، وَكَذَا فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ وَالْأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ»، وَقَالَ ابن جرير، عن ابن عباس في قوله تعالى: {سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} قَالَ: لَوْ حدثتكم بتفسيرها لكفرتم، وكفركم تكذيبكم بها" (رواه ابن جرير عَنْ مُجَاهِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عنهما)*[11].

[11]- ابن كثير، عماد الدين ابو الفداء إسماعيل. تفسير القرآن العظيمن القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط2، 1410ه/ 1990م، ج4، 385.

وجاء في "التحرير والتنوير" لإبن عاشور قوله "وَجُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ جَعَلُوا الْمُمَاثَلَةَ فِي عَدَدِ السَّبْعِ وَقَالُوا: إِنِ الْأَرْضَ سَبْعُ طَبَقَاتٍ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ هِيَ سَبْعُ طَبَقَاتٍ مُنْبَسِطَةٍ تَفْرُقُ بَيْنَهَا الْبِحَارُ. وَهَذَا مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ رِوَايَةِ الْكَلْبِيِّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ هِيَ سَبْعُ طِبَاقٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ. وَهَذَا يَقْرُبُ مِنْ قَوْلِ عُلَمَاءِ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ (الْجُيُولُوجْيَا) ، مِنْ إِثْبَاتِ طَبَقَاتٍ أَرْضِيَّةٍ لَكِنَّهَا لَا تَصِلُ إِلَى سَبْعِ طَبَقَاتٍ "[12].

إذن جمهور المفسرين يجعل المماثلة في العدد من حيث هي سبع أرضين، غير أنه سبحانه وتعالى استخدم صيغة الجمع للسماوات ولم يستخدمها للأرض مما يدل على أن كل سماء تختلف بصورة من الصور عن السماوات الأخرى، والأحاديث النبوية الواردة بشأنها تؤكد ذلك، ولكن الأرض واحدة بسبع نسخ متماثلة بيئيا ومن حيث الغرض. مثال ذلك أن تكون لديّ صورة فوتغرافية واحدة ولكن لي منها سبع نسخ، فلا أقول لدي سبع صور بل صورة واحدة منها سبع نسخ، ولكن إن كانت لدي سبع صور فوتوغرافية تختلف عن بعضها من حيث هيئتي التي في كل منها، أو الأمكنة المختلفة التي صورت فيها فهنا لابد من استخدام صيغة الجمع بشأنها. الحقيقة المضطردة في القرآن الكريم هي استخدام صيغة المفرد للأرض حيثما وردت مع مقابلتها بالسماوات بصيغة الجمع غالبا.

في الآية الثانية أيضا ما يدعم الفرضية الأولى بأن في كل سماء أرض مماثلة بيئيا لأرضنا هذه، فبجانب ذكر الأرض مفردة مقابل السموات نجد أن التحدي بالنفاذ لم يقتصر فقط على أقطار السموات وإنما امتد ليشمل أقطار الأرض، ولو كانت الأرض المقصودة هي أرضنا هذه وحدها لما كان في ذلك تحدٍّ إذ لطالما نفذ الجن من أقطارها، وها هم الإنس يفعلون ذلك الآن بصورة راتبة. وفي تفسير الألوسي(روح المعاني) ما يدعم فرضيتنا أعلاه فقد جاء فيه: *(أخرج العياشي بإسناده عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا رضي الله تعالى عنه قال: بسط كفه اليسرى ثم وضع اليمنى عليها فقال: «هذه الأرض الدنيا والسماء الدنيا عليها قبة، والأرض الثانية فوق السماء الدنيا والسماء الثانية فوقها قبة، والأرض الثالثة فوق السماء الثانية والسماء الثالثة*

[12]- ابن عاشور، محمد الطاهر. التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، 1984، ج 28، ص 340.

فوقها قبة حتى ذكر الرابعة والخامسة والسادسة فقال: والأرض *السابعة فوق السماء السادسة والسماء السابعة فوقها قبة وعرش الرحمن فوق السماء السابعة، وهو قوله تعالى: سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُن)*[13].

الآية الثالثة تدعم أيضا فرضية السبع المتماثلات من الأرض، ذلك أن الله تعالى ذكر السبع سماوات وطيّها يوم القيامة ولكنه ذكر بجانبها الأرض مفردة مضافا إليها كلمة "جميعا" ليدلل على أنها عديدة متماثلة الصفات. ويدعم فهمنا هذا ما جاء عن ذلك في الكشاف للزمخشري حيث يقول: (*والمراد بالأرض: الأرضون السبع، يشهد لذلك شاهدان: قوله جَمِيعاً وقوله وَالسَّماواتُ ولأنّ الموضع موضع تفخيم وتعظيم، فهو مقتض للمبالغة، ومع القصد إلى الجمع وتأكيده بالجميع أتبع الجميع مؤكدة قبل مجيء الخبر، ليعلم أوّل الأمر أن الخبر الذي يرد لا يقع عن أرض واحدة، ولكن عن الأراضي كلهن*)[14].

الآية الرابعة تؤكد بوضوح أن استخلافنا نحن البشر الذين في هذه الأرض يمتد إلى كل هذه الأراضي السبع المتماثلة بيئيا، والدليل على ذلك أن الخطاب موجه إلينا بأن كل ما في الأرض خلق لنا، ولما كانت كلمة (جميعا) راجعة إلى الأرض، كما في الآية الثالثة أعلاه، فهي دليل على الاستقصاء لكل ما خلق في كل المتماثلات السبع من الأرض، وأن كل ذلك لنا. وجميع التفاسير مما اطلعت عليه تفسر كلمة (جميعا) في هذه الآية باعتبارها حال من (ما)، أي خلق لكم جميع ما في الأرض، والذي أراه أنها ترجع إلى الأرض باعتبار ما ذكرت أعلاه من تفسير الزمخشري للآية رقم(3)، وهو أبلغ في الدلالة على كثرة النعم، واتساع رقعتها، وسخاء المنعم، ولكن لما لم يكن أمر استخلاف الإنسان في كل المتماثلات السبع من الأرض متخيلا عندهم، بحكم مقتضى الزمان الذي عاشوا فيه، كان منطقيا وسليما أن يصرفوا المعنى إلى المخلوقات المتعددة في أرضنا الواحدة هذه. وأرى أن جُملاً مثل (ما في السماوات وما في الأرض جميعا؛ ما في الأرض جميعا؛ والأرض جميعا)

---

[13]- الالوسي، شهاب الدين بن عبد الله الحسيني. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1415ه ج 14، ص339.

[14]- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر بن احمد. الكشاف، بيروت: دار المعرفة، د. ت، ج 3، ص 356.

حيثما وردت في القرآن الكريم ينصرف معنى الجمع فيها، فيما يلي الأرض، إلى المتماثلات السبع من الأرض ما لم يقم شاهد يصرف المعنى إلى أرضنا الواحدة هذه، وليس إلى جميع المخلوقات المتعددة في الأرض الدنيا هذه، إذ المعنى الأول يستوعب ويتجاوز المعنى الثاني.

الآية الخامسة هي التي تعطينا الدليل على توزع الأرضين السبع على السماوات السبع، ولكنه دليل غير مباشر ومفاده الآتي:

أولا؛ الشمس والقمر علاقتهما بالأرض علاقة ضرورية، فهما لازمان لها لتكون الأرض صالحة للحياة، فحيثما توجد الأرض لابد أن يوجد معها الشمس والقمر؛

ثانيا؛ تماثل الأرضين السبع بيئيا يقتضي بالضرورة تماثل في شمسها وقمرها، إذ لو اختلفت الشمس والقمر في كل أرض عنها في الأخرى لانتفى التماثل الأرضي المفترض لأنهما عاملان أساسيان في اكتساب الأرض خصائصها البيئية المميزة؛

ثالثا؛ تقتضي النقطة ثانيا أن ترد في القرآن الكريم لفظتا (الشمس) و(القمر) بصيغة المفرد دائما، رغم أنهما بعدد الأرضين السبع، للتأكيد على التماثل كما هو الحال مع كلمة (الأرض)، وهو الحاصل فعلا في القرآن الكريم؛ ولا يقتضي ذلك إضافة كلمة (جميعا) إليهما للتدليل على التعدد كما أضيفت إلى الأرض، إذ يكفي في ذلك إضافة الكلمة إلى الأرض لأنها هي الأهم، وهما لها تبع في ذلك؛

رابعا؛ حيث ما ذكر الشمس والقمر في القرآن الكريم فذلك باعتبار علاقتهما بالأرض، إذ لا ميزة لهما في ذاتهما كنجم وكوكب عن غيرهما من مليارات النجوم والكواكب التي يعج بها الكون وتماثِلهما في الخصائص الفيزيائية. إن الأرض لخصوصيتها التي تميزها عن سائر الكواكب والنجوم، ومركزيتها في خطة الخلق الإلهية العامة للكون كله، هي التي تُكْسب الشمس والقمر

خصوصيتهما عن سائر النجوم والكواكب. لذلك يقتضي ذكر اسم العلم (الشمس) و(القمر) في القرآن الكريم وجود (الأرض) معهما، فإذا ذكر القرآن الكريم أن الشمس والقمر توجدان في كل سماء، أو أنهما بحسبان، دل ذلك على وجود الأرض معهما، وأن ذكرهما إنما يرد بغرض التذكير بدورهما في المِنّة الإلهية العظمى على الإنسان وهي الأرض، وما تم فيها من إصلاح بيئي يناسب حياة الإنسان، وما خلق فيها من نعم لمعاشه؛

خامسا؛ الآية الخامسة أعلاه تشير إلى أن في كل سماء من السماوات السبع الطباق قمرا منيرا وشمسا سراجا، وهو المعنى اللغوي المباشر، ولا داعي لصرف المعنى إلى ما ذهب إليه المفسرون لا لشيئ إلا لاستبعادهم في الأصل القضية التي هي موضوع هذا البحث؛

سادسا؛ إذا سلمنا بسلامة المنطق والمضمون الذي حوته النقاط أعلاه حصل التسليم بأن الأرض توجد في كل سماء، وأننا نحن البشر مستخلفون فيها جميعا، والحمد لله رب العالمين. ولا تتعارض هذه النتيجة مع ما جاء من تأكيد في القرآن الكريم أن الإنسان خلق من الأرض، وفيها يحيى وفيها يموت ومنها يخرج تارة أخرى، وأن مستقره لا يكون إلا في الأرض، لأن لفظة الأرض تستخدم هنا في عمومها وليس هناك ما يحصر المعنى في أرضنا هذه، ولنتذكر أن الإنسان هبط إلى هذه الأرض الدنيا من أرض أخرى. لذلك نقول، وبالله التوفيق، من عاش من بني آدم في أي من الأرضين السبع ومات فيها فمنها يبعث. كذلك فإن تواصل الناس بين هذه الأرضين السبع عبر رحلات واتصالات كونية تيسرها علوم وتقنية لا تخطر على بال أحد الآن سوف يجعل من اليسير، فيما يخص المسلمين، الحج إلى مكة من أي أرض كانوا فيها، كما سوف يبدع العقل المسلم علوما شرعية جديدة، تنكسف أمامها علومنا الشرعية الموروثة والمستجدة الآن، وتنحلّ بها التحديات التي تواجه المسلم في العالم الجديد.

الآية السادسة تعزز معنى الآية الخامسة وتدعم فرضية تَوَزّع الأرضين السبع بين السماوات السبع، وذلك بذكر الله تعالى عدم قدرة الناس على إعجازه، سواء في الأرض، أو في السماء. ولما كان مفهوما عدم الإعجاز فيما يتعلق بالأرض، وهي مستقر الناس، فكيف نفهم عدم إعجازهم لله في السماء؟ المفسرون، لعدم تصورهم بلوغ الإنسان يوما ما أقطار السماوات، ردوا المعنى إلى يوم القيامة رغم أنه يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، ويوم لا فوت ويؤخذ الناس من مكان قريب. والراجح لدينا أن الآية تنبؤ بأن طغيان الإنسان وظنه بأنه مستغن عن الله تعالى وخارج عن قدرته لن يقتصر على الأرض التي هو ظاهر فيها اليوم، بل سيصحبه في رحلته الكونية وهو يجوب أرجاء ما سُخّر له من السماوات والأرض جميعا. ودلالة الآية على قضيتنا هي أنه لما قضى الله تعالى أن الأرض وحدها هي التي فيها يحيى الإنسان وفيها يموت ومنها يخرج فإن حركة الإنسان الكونية تقتضي بالضرورة أن تكون هناك أرضون تتوزع على الكون كله حتى يستقر الإنسان فيما يصل إليه منها ويعمرها ثم يستأنف مسيرته إلى ما وراءها من أرجاء الكون الفسيح. ليس ممكنا من حيث المسافة الزمانية والجغرافية أن يعود الإنسان من أطراف الكون إلى أرضه الدنيا ليتزود منها ويقضي حوائجه ثم يعود من حيث أتى، ولنا في رحلات الفضاء الحالية المحدودة خير شاهد حيث بدأ الإنسان ينشئ محطات في الفضاء تكون له مرتكزا يقلل من حاجته إلى العودة إلى الأرض في كل رحلة كونية يقوم بها.

الآية السابعة تثبت وجود الدواب في كل السماوات والأرض جميعا دون تمييز لدواب دون دواب، ولما كانت كل دابة مخلوقة من ماء، بما في ذلك الإنسان، كما يخبرنا القرآن الكريم: (وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)(النور)، فقد خرجت بذلك الملائكة والجِنّة من أن تكون من الدواب،

فالأولى مخلوقة من نور، والثانية مخلوقة من مارج من نار. ولكن الدواب بطبيعتها تحتاج إلى هواء للتنفس، وإلى ماء للشرب، وإلى طعام للغذاء، مما يعني بيئة صالحة للحياة كبيئتنا الأرضية هذه، وهذا بدوره له دلالة هامة على قول الله تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾)(الجاثية)، مفادها إمكان حركة الإنسان الكونية مستفيدا من البيئات الكونية المناسبة لمثله من الدواب، ومستفيدا أيضا مما بث الله تعالى في الكون من دابة قد يصلح بعضها لطعامه. والنتيجة المستفادة من هذا الحجاج هو أن أرضا صالحة لحياة الإنسان، غير هذه الأرض التي نحن فيها الآن، ومسخّرة له، توجد في الكون الفسيح وتنتظر وصوله إليها وعمارتها، وهاهو الإنسان الخليفة يخطو أولى خطواته نحوها، وإن غدا لناظره قريب.

لفت نظري دقة التعبير القرآني في استخدام لفظة "أقطار" للنفاذ من السموات والأرض ولم يستخدم لفظة "محيط"، ذلك أن الأجرام السماوية دائرية الشكل، وللدائرة "قُطْر" و"مُحيط"، ولا يمكن النفاذ من الدائرة عن طريق محيطها لأن تتبع المحيط يعيد المتتبع له من حيث بدأ، في دوران دائري لا نهاية له، ولكن لما كان "القطر" هو الخط المستقيم الذي يمر عبر مركز الدائرة ويربط بين نقطتين في محيطها فإن تتبعه إلى نهايته يمكن أن يؤدي إلى النفاذ من الدائرة. ولما كانت أي نقطة في محيط الدائرة تصلح كبداية أو نهاية للخط المستقيم المحدِّد لقطرها فهذا يعني أن لكل دائرة عددا لا نهائي من الأقطار من حيث نقطة البداية والنهاية. هذا المعنى الفني لكلمة أقطار ينسجم واستخدام القرآن لها بمعنى المروق من أي ناحية من نواحي الجرم السماوي والخروج من مجال جاذبيته.

نختتم هذا الجزء من البحث المتعلق بالفرضية الأولى بتلخيصه في الشكل رقم (2) أدناه حيث نفكك الفرضية الأم التي تقول: (*الأرض، بقمرها وشمسها، لها ما يماثلها في كل سماء من السماوات السبع، وجميعها مستخلف فيها الإنسان*)

إلى الفرضيات الأولية التي تتكون من مجموعها، ثم نُلحق بكل فرضية الأدلة القرآنية المنشئة لها. الفرضيات الأولية الرافدة لهذه الفرضية الأم هي أربع:

1- فرضية (التماثل العددي بين الأرض والسماوات)؛

2- فرضية (التماثل البيئي بين الأرضين السبع)؛

3- فرضية (استخلاف الإنسان في الأرضين السبع)؛

4- فرضية (تَوَزّع الأرضين السبع بين السماوات السبع).

إن فوائد هذا المنهج التفكيكي هي الآتي:

أولا؛ لكي ندحض الفرضية الأم إنطلاقا من القرآن الكريم فلابد من دحض كل، أو بعض الفرضيات الأولية من حيث رد أدلتها القرآنية؛

ثانيا؛ يمكن الآن التخلي عن فرضية (توزع الأرضين السبع على السماوات السبع) دون دحض الفرضية الأم، بينما دحض أي من الفرضيات الأخرى يؤدي مباشرة إلى دحض الفرضية الأم ذاتها؛

ثالثا؛ تقلصت المسافة كثيرا بين مصدر التنظير وهو القرآن الكريم وبين عملية التنظير ذاتها.

شكل رقم (3)

فرضية التماثل الأرضي وروافدها من الفرضيات العلمية وأدلتها القرآنية

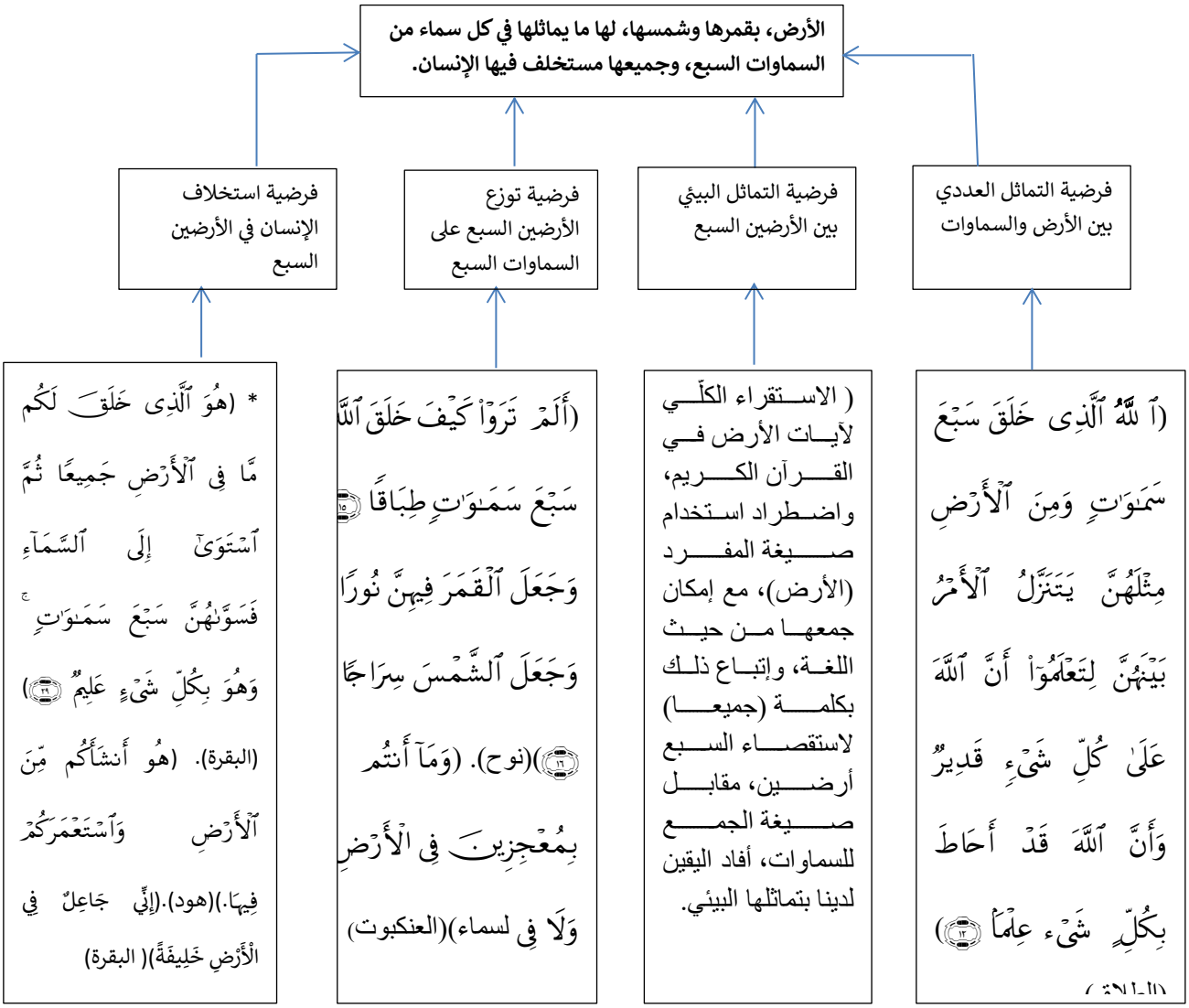

الفرضية الأولى أعلاه تقتضي إثبات قدرة الإنسان على الوصول ببدنه إلى كل الأرضين الست الباقية ليحقق فيها استخلافه، وينتفع بما خُلق له فيها، وأن في القرآن الكريم من الشواهد ما يمكن أن تتولد عنه هذه الفرضية. هذه القضية تتم معالجتها في الفرضية الثانية، إن شاء الله تعالى، فإلى تلك الفرضية.

2.2.3- الفرضية الثانية:

سوف يبلغ الإنسان بعلمه وعمله جميع المتماثلات من الأرض في السموات السبع ليحقق مغزى الاستخلاف العمراني عليها قبل قيام الساعة.

سوف أورد، أولا، شواهدي الداعمة لهذه الفرضية العلمية ثم أتبعها بالأسباب التي أرى أنها سوف تدفع بالإنسان وتحفزه لتحقيق هذه الفرضية، والوسائل التي سوف تمكنه من ذلك، وأبدأ بالشواهد من القرآن الكريم، ثم من السنة النبوية، ثم من التجربة البشرية المعاصرة.

أولا؛ قول الله تعالى: (يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾)(الرحمن).

في هذه الآيات تحدى الله تعالى الجن والإنس بالنفاذ من أقطار السموات والأرض إن استطاعوا، ثم أكد قهرهم عن ذلك بشواظ من نار ونحاس، ولكن هذا يدل على قدرة الجن والإنس على بلوغ أقطار السموات والأرض لأنه لا معنى لتحديهم بالنفاذ منها إن كانوا عاجزين ابتداءً عن الوصول إليها. وعطف الإنس على الجن في الآية له مغزاه لأن الجن بأصل خلقتها قادرة على الوصول إلى أقطار السموات والأرض، وقد وثّق القرآن ذلك في أكثر من آية، فمثلا قوله تعالى: (وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾)(الجن)؛ وكذلك قوله تعالى: (إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾)(الصافات)؛ (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾)(الحجر).

إذن عطف الإنس على الجن، الذين يستطيعون بأصل خلقتهم بلوغ أقطار السماوات والأرض، دليل على أن الإنس يستطيعون بعلمهم وعملهم بلوغ ما بلغته الجن بأصل خلقتهم. والإذن للجن والإنس ببلوغ أقطار السموات والأرض فلأن الله تعالى قد سخّر لهما ما في السموات وما في الأرض جميعا منه، والتسخير القائم على الابتلاء والمقتضي للحساب والجزاء يفترض تيسير الوصول إلى تلك المُسخّرات لمن سُخِّرت له. ولكن النفاذ من أقطارها ممتنع في حقهما، رغم تطلعهما لذلك بحكم الجبلّة، لأنه ليس بعد السماء السابعة إلا عرش الرحمن فيما نعلم من السنة النبوية، وهو خارج مجال التسخير.

ولا نرى ما تراه تفاسير القرآن الكريم المختلفة(أنظر التحرير والتنوير لابن عاشور) من أن التحدي إنما يتعلق بيوم القيامة وليس في هذه الدنيا، وذلك لسببين؛ الأول، هو أن جميع الآيات التي وردت في سورة الرحمن قبل آيات التحدي هذه تتعلق بتبيان عظمة ما خلق الله تعالى من كائنات بما في ذلك الجن والإنس، وبمنّته وآلائه على الجن والإنس من حيث تسخيره هذا الخلق العظيم لمنفعتهم، وإنكاره عليهم طغيانهم وجحودهم نعمته، وتوهّم استغنائهم بقدراتهم الذاتية عنه تعالى، فتحداهم بما ليس مسخرا لهم ومن ثم ليس في مقدورهم. السبب الثاني لردنا ما جاء في التفاسير هو أن القرآن الكريم يصف يوم القيامة وصفا لا يسمح بأن تكون للجن والإنس قوة، أو حيلة يمكن تحديها بالنفاذ من أقطار السموات والأرض، فالأرض التي نعرفها جميعا في قبضة الله تعالى يوم القيامة، والسماوات التي نعرفها مطويات بيمينه سبحانه، والناس يخرجون من الأجداث حفاة عراة مهطعين إلى الداعي، والمجرمون يعرفون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام، وكل نفس تأتي معها سائق وشهيد فأين المفر: (وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٥١)(سبأ).

ثانيا؛ في السنّة والسيرة النبوية ما يدعم فرضية قدرة الإنس، بجانب الجن، على بلوغ أقطار السموات والأرض متمثلة في عروجه صلى الله عليه وسلم بكامل هيئته البشرية وبلوغه أقطار السماء السابعة مرورا بكل السموات التي دونها. وإذا كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، قد تمكّن من ذلك في زمانه بسبب ترتيبات إلاهية معينة مثل دابة البراق وحاديها جبريل عليه السلام، وفي ذلك معجزة له، صلى الله عليه وسلم، فإن الإنسان اليوم بترتيبات إلاهية معينة كذلك، مثل البِدَل الخاصة برواد الفضاء، والسفن الفضائية وحاديها علم الله الكوني الذي شاء الله تعالى أن يحيط به الإنسان، وغداً بعلْمٍ يستغني به الإنسان في حركته الكونية عن الوسائط المادية، يستطيع الوصول إلى ما سُخّر له من أقطار السموات والأرض. وإنما نسَبْت هذه المخترعات البشرية إلى الله تعالى لأنه سبحانه وتعالى قال: (وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾)(الصافات).

ثالثا؛ يمكننا أن نستنتج من القرآن الكريم أن الإنسان يمكنه أن يبلغ درجة من العلم تمكّنه من نقل الأجسام المادية الضخمة إلى مسافات شاسعة في لمح البصر، ولنقرأ قول الله تعالى: (قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ

أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾(النمل).

تدل الآيات على أن قدرات الإنسان في نقل وتحريك المادة بعلمه غلبت قدرات الجن على فعل ذلك بأصل خلقتهم، وقد يأتي هذا العلم من كتاب الله المسطور(الوحي)، وقد يأتي من كتابه المنظور(الكون)، ولكلٍّ مناهجه التي تناسب أخذ هذا العلم منه. والشاهد أن الإنسان اليوم تتراكم حصيلته من هذا العلم بصورة متسارعة عن طريق تطوير مناهج وتقنيات دراسة الكون بحيث أصبح يقترب من السقف المعرفي الذي أثبتته الآيات السابقة فيما يتعلق بالقدرة على نقل وتحريك الأجسام المادية في الزمان والمكان بما يهيئ الإنسان للقيام برحلته الكونية في أقطار السماوات والأرض محققا مغزى الاستخلاف.

رابعا؛ يسير الإنسان الآن، من خلال رحلاته المأهولة وغير المأهولة إلى كواكب مجموعتنا الشمسية، ومن خلال استكشاف الكون البعيد عبر تيلسكوباته المدارية ومحطاته الأرضية، بخطوات ثابتة نحو أقطار السموات والأرض، نافذا من أقطار أرضه الدنيا التي ذُرِأ فيها باحثا عما يليها من أرض، وهذا أكبر دليل يدعم الفرضية الثانية، والحمد لله رب العالمين.

إن فرضيتنا العلمية تنبؤ أن الإنسان قد بدأ للتو مسيرته الحضارية الاستخلافية التي من أجلها خلقت السموات والأرض، وأن تاريخ الكون وتاريخ الإنسان فيه إن هو إلا مقدمات لهذه المسيرة الاستخلافية القادمة التي سوف تشهد من الأعمال الإنسانية الكونية العظيمة في صلاحها، أو فسادها، ما يكافئ عظمة الخلق الكوني ببداياته ونهاياته المذكورة في القرآن الكريم. ولكن يبقى السؤال المتعلق بما يحفز الإنسان للخروج من أرضه الدنيا هذه ويبدأ مسيرته الكونية، والوسائل التي سوف تعينه على القيام بذلك. والإجابة عن هذا السؤال تعيدنا إلى **خطة الخلق العامة** التي بسطنا تفاصيلها في القسم السابق، إذ

يتبين منها أن الحافز الأعظم لحركة الإنسان الكونية هو ذات الحافز الذي خُلق فيه فطرة ليعمر الأرض وليتحقق الابتلاء، ألا وهو (تعظيم متاع الحياة الدنيا)، وقد قال الله تعالى في آيات كثيرة إن هذا هو دافع من آثر الحياة الدنيا على الآخرة: (بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧)(الأعلى)؛ (وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢)(الأنعام)؛ (إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ٣٦)(محمد)؛ (ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠)(الحديد).

إن مليارات السنين المتبقية احتمالا من عمر الإنسان في هذه الحياة الدنيا، إن صحت نظريتنا، يتوقع أن تؤدي إلى زيادات سكانية هائلة قد تصل إلى ترليونات من البشر مما تضيق به الأرض بما رحبت، ولن يكون أمام أصحاب الاستطاعة من الناس إلا الضرب في الكون الفسيح بحثا عن أرض أخرى للسكن والعمران. والقرآن الكريم يؤكد أن الأصل في العدد السكاني

للبشر هو الزيادة لأن "الأولاد" الذين بهم يزيد عدد سكان الأرض هم مكّون أساسي من مكونات المتاع الدنيوي الذي يسعى الناس لتعظيمه(وتكاثر في الأموال والأولاد). لذلك مهما اتخذ واضعوا السياسات السكانية من وسائل لمنع التكاثر البشري فإن مآلهم إلى الفشل، وسوف يظل الناس يتكاثرون، لا سيما عندما تتحسن الأحوال المعيشية والصحية للمستضعفين في الأرض الآن، ومنهم من يعتبر الزيادة في المواليد نعمة من الله تعالى، والتكاثر العددي منعة، فيتزايد بسبب ذلك عدد المواليد ويقل عدد الوفيات. فإذا أضفنا إلى هذه القنبلة السكانية الموقوتة تنافس الأنفس البشرية، ليس بتقواها ولكن بفجورها، على زينة الحياة الدنيا(المال والبنون) فإن فسادا عظيما يتوقع أن يعم الأرض فيما تستقبل البشرية من أيام دهرها، بحيث يهرب كل من يستطيع الهرب إلى الكون الفسيح للنجاة بنفسه وبمن يحب. وما الاستعدادات التي تجري الآن على قدم وساق لذهاب الناس في سياحة فضائية، والاستثمارات الضخمة التي تقوم بها الشركات المتخصصة لإنتاج مركبات فضائية تجارية، والبحث العلمي الجاري في المجالات الزراعية لإنتاج محاصيل ونباتات يمكنها النمو والازدهار في بيئات الفضاء الخارجي، وفي مجالات الأغذية لإنتاج أنواع من الأطعمة يمكنها الصمود لأمد طويل في رحلات فضائية تمتد لآجال طويلة، ما كل ذلك إلا إرهاصات لما تتحدث عنه هذه الورقة. والآن هناك نفر من البشر انتدب نفسه للسفر والإقامة بلا عودة في كوكب المريخ في إطار ترتيبات فضائية يجري الإعداد لها الآن.

أما وسائل تحقيق تلك الحركة الكونية القدرية للإنسان فهما العلم الكوني والتقنية التي يطورها الإنسان بأسباب من هذا العلم. علينا أن نتذكر أن التراكم المعرفي والتقدم العلمي المدهش والمتسارع الذي تحققه البشرية الآن، وما ترتب عليه من تقنية ومنجزات حضارية واستكشافات فضائية، تم في معظمه خلال القرنين الماضيين فقط من عمر الإنسان على هذه الأرض، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الأمد الزماني لما تبقى من عمر الكون، بحسب استنتاجاتنا السابقة في هذا البحث، قد يمتد إلى بضع مليارات من السنين يواصل فيها الإنسان

مسيرته العلمية والتقنية المتسارعة والمتراكمة، بما يحقق في مجال المادة مضمون الآية (قبل أن يرتد إليك طرفك)، توصلنا إلى نتيجة معقولة مفادها أن الكون المسخر للإنسان كله، بسماواته السبع والأرض المماثلة لها عددا، سوف يكون في مدى الاستكشاف والاستخلاف الإنساني. وهذه الرحلة الاستكشافية هي التي سوف تمكّن الإنسان من الإحاطة بعلم من الكتاب الكوني لا يخطر الآن على قلب بشر، ومن التحكم في مادة الكون اللامتناهية في الصغر والكبر بحيث تصير حركة الراكب من الأرض السابعة إلى الأرض الدنيا كعرش بلقيس في حضرة نبي الله سليمان، عليه السلام، وإن غدا لناظره قريب.

لما كان الهوى(تعظيم متاع الحياة الدنيا) هو الإله الذي يدفع الإنسان الآن في حركته الكونية فإن القرآن الكريم يشير إلى أن ناتج هذه الحركة الكونية سوف يكون فسادا عظيما يكافئ عظمة السماوات والأرض، ويكاد يفسدهن ومن فيهن لولا حفظ الله تعالى لهن: (وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ٧١)(المؤمنون).

4- الخاتمة

هناك عدد من القضايا التي تهم الأمة الإسلامية اليوم مما يترتب على ما جاء في هذا البحث نوجزها فيما يلي:

أولا؛ تهيئة الأمة الإسلامية للتطلع إلى اللحاق بركب السابقين إلى الفضاء الكوني للقيام بواجب الاستخلاف التوحيدي في الأرض جميعا، ذلك أن الذين يصلون إلى أقطار السماوات والأرض قبل غيرهم سوف يتحكمون في من يلحق بهم. ليس هناك دين غير الإسلام الذي جاء به محمد، صلى الله عليه وسلم، يهدي البشرية للتي هي أقوم في حركتها الكونية، وليس هناك أمة غير الأمة الإسلامية تكون شاهدة على الناس وهم يعمرون الأرض جميعا من السماء الدنيا إلى السماء السابعة.

ثانيا؛ إن العلم والتقنية العظيمة التي سوف يمتلكها من يستطيعون الوصول إلى أقطار السماوات والأرض، وكذلك الموارد الفضائية التي سوف تكون تحت تصرفهم تجعلهم قادرين، من على البعد، على فعل ما يشاؤون بمن أخلد إلى هذه الأرض. ولما كان غير المسلمين هم المبادرون إلى الفضاء الكوني، وليس بينهم وبين المسلمين مودة، وجب على الأمة الإسلامية أن تحتاط لنفسها، وأن تختط لنفسها طريقا إلى الفضاء.

ثالثا؛ لابد من إعادة النظر الجدّي في حقيقة علوم الدين بحيث تعود لجميع آيات القرآن الكريم حيويتها في التأسيس للعلم التوحيدي، المحقق للإيمان والعمران، في جميع امتداداته التخصصية التي تفرضها شروط الزمان والمكان، دون تحيز باسم الدين لتخصص دون آخر. فكل علم ضروري لإقامة الدين في الزمان والمكان فهو من علوم الدين، وهو بذلك علم شرعي لأن الشريعة هي الدين كله كما جاء في القرآن الكريم: (شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ

وَعِيسَىٰٓ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣)(الشورى).

تم بحمد الله

مراجع الكتاب

البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل. صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (ط1، 1411ه/ 1991م).

الألوسي، شهاب الدين بن عبد الله الحسيني. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق علي عبد الباري عطية، بيروت: دار الكتب العلمية، (ط1، 1415ه).

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد. الكشاف، بيروت: دار المعرفة، (د. ت).

الترابي، حسن عبد الله. الإيمان وأثره في حياة الإنسان، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، (ط3، 1430ه/2009م).

الخالدي، محسن سميح. الهوى: دراسة موضوعية للمصطلح القرآني، دراسات، علوم الشريعة والقانون، (المجلد 37، العدد 2010).

بريمة، محمد الحسن. العلم والمعرفة بين رؤيتين للعالم، معهد إسلام المعرفة، السودان، (ط1، 2016م).

عزوز، أحمد. أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق.

Dinwiddie, Robert, and Others. Universe, New York: DK; Rev Upd edition(September 17, 2012).

Adams, Fred, and Laughlin, Greg. The Five Ages of the Universe: Inside the Physics of Eternity, Free Press 2000.

http:/www.nasa.gov/mission_Pages/planck/multimedia/pia16873.html#.VrZk3P197Z4.